الجمهوريـــــــــة الجزائريـــــــة الديمقراطيـــــــة الشعبيـــــــة
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد بوضياف -المسيلة

كلية: الأدب واللغات
قسم: الأدب العربي
رقم: .....

ميدان: اللغة والأدب العربي
تخصص: أدب عربي حديث ومعاصر

مذكرة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة ماستر أكاديمي

تحت عنوان:

المدائح النبوية الشريفة في الشعر العربي الحديث

قصيدة نهج البردة لأحمد شوقي " أنموذجا"

من إعداد: الطالب
– مناصرية خليل

تحت إشراف:
– د: بن عطية مصطفى

لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة	الصفة
د.	أستاذ محاضر (أ)	جامعة محمد بوضياف بالمسيلة	رئيسا
د.	أستاذ محاضر (أ)	جامعة محمد بوضياف بالمسيلة	مشرفا ومقررا
د.	أستاذ محاضر (أ)	جامعة محمد بوضياف بالمسيلة	ممتحنا

السنة الجامعية :2020- 2021

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة شكر

أولا وقبل كل شيء أشكر الله العلي القدير على ما أتاني من فضل الشكر والعرفان للوالد رحمه الله على كل ما قدمه لي .

ثم أتقدم بالشكر الجزيل للوالدة اطال الله في عمرها وحفضها ورعاها

وللأستاذ المشرف الدكتور " بن عطية مصطفى "

على قبوله الإشراف لإنجاز هذه المذكرة وعلى توجيهاته وملاحظاته القيمة.

ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر والعرفان إلى السادة أعضاء لجنة التقييم لتكرمهم بتخصيص جزء من وقتهم لقراءة وتقييم هذا العمل.

كما أتقدم بالشكر الجزيل لكل من قدم لي يد العون في الحصول على المراجع وإلى كل من ساعدني بمعلومة، نصيحة، توجيه، أو بكلمة طيبة

إهـــــــداء

- إلـى الوالدين الكريمين.
- إلـى كل الإخوة والاخوات.
- إلى جميع أفراد العائلة.
- إلى أحمد عزت/ خلافي حمزة / ومجناح وليد

وإلى كل الأصدقاء والزملاء.

مقدمة

مقدمة:

هكذا هي الحياة على الأرض، خلقها الله بقدرته و أجرى عليها هذا الناموس الصاعد الهابط، حياة بدائية تنمو و تزدهر، و ينضج فيها العقل البشري حتى يبلغ أشده، ثم ماذا بعد؟ إنها السنن الإلهية التي لا تتخلف وهكذا بعث الله الأنبياء يتدرجون مع البشرية في نموها وصعودها، حتى إذا بلغت أشدها أرسل إليها خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم، ثم تركها لعقولها التي بلغت أشدها، فعاشت هذه القمة العليا من النبوة و الخلافة الراشدة، فهزت دعوته القبائل ورؤسائها، وب لغت الممالك المجاورة و ملوكها، فوقفت بين مصدقة ومكذبة، حتى إذا بلغت ما كان عليه هذا الرسول من تعلق بالحق و الوفاء و القناعة و التواضع، و من مقدرة في البلاغة و الفصاحة و البيان و السياسة، و من مكانة في الشجاعة وقيادة الجيوش، ما لها أمره و أذهلها خطره، فانصرفت بعضهم إليه و انصرف بعضهم عنه، ووقف له شعراء يتصدون للهجوم عليه، كما وقف شعراء في الدفاع عنه و امتداحه.

و هكذا بظهور محمد عليه الصلاة و السلام و ما حمله من رسالة سامية إلى هذا الوجود ظهرت معه المدائح النبوية فصفاته عليه السلام أسمى و اجل من أن يتغنى بها شاعر ما، فقد فاق حسن خلقه البشر بما ميزه الله عنهم لقوله تعالى "و إنك لعلى خلق عظيم"، أو ليس هو الذي يطلق عليه سيد البشر و سيد الأنبياء؟

و لأجل هذا و ذاك كيف لا يستبق الشعراء في مدحه بكل ما جادت قرائحهم و أبدعت أقلامهم؟

فنجد حسان بن ثابت الملقب بشاعر الرسول مثلا، قد وجه ملكته الشعرية صوب النبي على شكل قالب شعري مرصع بحروف ذهبية صنعتها تلك اللغة الراقية القوية قوة ما تحمله من سخط على الأعداء المشركين فقد أذهلته تلك الروح الطاهرة التي فاقت نقاوتها وصفه لها.

وهكذا بقي الشعراء عبر العصور يرسخون مناقب الرسول صلى الله عليه وسلم في أشعارهم و كل حسب نيته وقصده، إلى أن أتت قصيدة البوصيري الرائعة المعروفة بالبردة، و التي ذاع صيتها عبر كل الدول الإسلامية لما تتميز به من إثارة في الوصف و هكذا تأثر بها كثير من الناس و الشعراء وأصبحوا يتداولونها على ألسنتهم وفي أماكن جلوسهم، فقد تداولها الشعراء أيضا إلى أن وصلت إلى الشاعر أحمد شوقي و الذي كان تأثره بها تأثرا جللا، فصاغ على منوالها و عارضها بقصيدته المشهورة التي نهج نعجها فأسماها "نهج البردة".

هذا من جهة، و من جهة أخرى نجد أنه لم يعن من القدماء أو المحدثين بتأريخ هذا الفن في اللغة العربية لأن الذين أجادوه لم يكونوا في الأغلب من فحول الشعراء، و لأنه لم يطرد في التاريخ، و لم يكن فنا ظاهرا بين الفنون الشعرية كالرثاء و الوصف و النسيب، و إنما هو فن نشأ في البيئات الصوفية، ولم يهتم به من غير المتصوفة إلا القليل، غير أنه مع ذلك جدير بالدرس لأن فيه بدائع من القصائد و المقطوعات و لآن له شمائل غير شمائل المديح ولأن لأصحابه غايات دينية وأدبية حليقة بأن تدرس وبأن يرفع عنها إصر الخمول.

ولذلك نحن من بين هؤلاء القراء الذين حاولوا تأريخ هذا الفن منذ ظهوره إلى اليوم، كما الإشادة ببعض الشخصيات الشعرية التي أثرت هذا الفن، وتحليل بعض القصائد، ولسنا ندعي أننا سنقوم بتأريخ كل ما يتصل بهذال الفن فهذا شيء صعب.

ولذلك جعلنا لبحثنا هذا العنوان: المدائح النبوية في الشعر العربي الحديث، كما قمنا باتخاذ قصيدة نهج البردة لأحد شوقي كأنموذج يكشف لنا أهم ما يميز هذا الفن، ولقد اعتمدنا في دراستنا هذه على خطة بحث تقصينا خطواتها الواحدة تلو الأخرى، فقد قسمنا بحثنا إلى ثلاثة فصول، كان الفصل الأول فيها ممهدا بالحديث عن المديح في الأدب العربي ثم بعد لك خصصناه في ذاك المدح الموجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، و كيف ظهر و أهم خصائصه، وأهم أعلامه، ثم انتقلنا بعد ذلك إلى تعريف البردة لفك الإبهام.

عنها وقدمنا مفهوما للمعارضة الشعرية كي نجعل طريقا إلى دراسة نهج البردة لأحمد شوقي، باعتبار قصيدته تدخل في جانب المعارضات الشعرية لكونه عارض بها بردة البوصيري.

وبنا إلى الفصل الثاني والذي عنوناه: أحمد شوقي ونهج البردة فمن خلال العنوان سنكشف عن الشاعر و قصيدته، ولذلك قمنا بتقديم الشاعر لتتضح لنا هذه الشخصية، و بعدها دخلنا في جو الشاعر و القصيدة لنبين العلاقة الرابطة بينهما، ثم بعد ذلك قمنا بكتابة القصيدة للتوضيح أكثر، و بعد كل هذه السابقات قمنا بشرح القصيدة كاملة لنرفع الغموض عنها.

ويلي ذلك الفصل الثالث والذي نعتبره كدراسة تحليلية، ثم انتقلنا إلى الجانب الفني فيها، و جئنا بالصورة الشعرية و تكلمنا عنها بكل ما تحمله في طياتها، ثم تطرقنا إلى دراسة الموسيقى و الإيقاع الذي يكمن بين سطورها و ما حملته ألفاظها.

وبعدها حاولنا استخراج زبدة هذا الموضوع كرؤية خاصة حوصلناها كخاتمة لبحثنا.

و قد اتبعنا في هذا البحث المنهج التحليلي الوصفي و الذي نعتبره المنهج الموافق لعملنا هذا و الذي صادفتنا فيه عوائق جمة تمثلت في صعوبة اقتناء المراجع و التي حالت دوننا ورسم خطة البحث.

وهذا كله إنما نأمل أن نشعر القارئ بأنا كشفنا النقاب عن فن مجهول كان خليقا بأن يشغل الباحثين في تاريخ الأدب.

الفصل الأول:

المدائح النبوية

أ. المديح في الأدب العربي:

لقد قامت في قبائل العرب حروب، واستعرت بينهم وبين جيرانهم معارك، فثارت حرب البسوس قبل الهجرة بنحو قرن ونصف القرن، وأتانا شعر كثير نسب إليها، وقيل فيها، وجاءتنا كذلك أشعار أيامهم وما كان من مديح لأبطالهم وزعمائهم، فقد كانت حياتهم تسود رئيسا، وتملك زعيما، وترفع قائدا، وكانت الأديان المختلفة عندهم تبعث على العقيدة بوجود إله يذكرونه في شعرهم، ويتوجهون إليه ضارعين خاشعين، فكانت الأسباب إذا متوافرة لخلق المديح.[1]

وكانت الموضوعات متيسرة في المديح الديني والسياسي والاجتماعي، كما توافرت عند غيرهم من الأمم، ولكنها زادت عندهم بسبب الفقر المدقع في هذه الصحراء القاحلة ونضوب موارد الرزق وفقد الصناعات وندرة البساتين والغياض، وشح المياه، فكثر المحتاجون وقل الأغنياء، وعم الدهماء نظرة خاصة إلى الإحسان، والرفق، والعون، وحماية الجار لا نراها عند غيرهم من الأمم بمثل القوة التي استولت على نفوسهم.[2]

لذلك كثر القتال في سبيل الحياة، وتنوعت أساليب البطولة والبسالة من خروج في القفر، وصراع لوحش البر، وقتال للأعداء والمغيرين واللصوص.

وسارت في القبائل سيرة الكرماء والأجواد، والسادة الزعماء والوجهاء والمصلحين، فلما رحلوا قبل البعثة المحمدية إلى الشام واطراف العراق رأوا عند إخوانهم ملوك العرب ما يشجع على الكسب والترف والنعيم، فعاش شعراؤهم على مقربة من هؤلاء الأمراء يتناولون من هداياهم، ويتناولون بعشرهم عطايا وجوائز، فكان مديح الملوك، وكان المديح السياسي

[1] سامي الدهان، فنون الأدب العربي للفن الغناء، المديح، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية، د ت، ص 11.

[2] المرجع نفسه، ص 11.

على شكل قبلي، ينتصرون للغساسنة حينا، وللمناذرة حينا، ويضيفون بذلك إلى ديوان المديح قصائد خالدة من غرر الشعر.[1]

وظهر الرسول الأعظم فانقسم العرب في اتباعه، ووقف فريق معه وفريق راح يناضله، فنشأ شعر ديني إسلامي في المديح يشيد بالرسالة والدعوة والرسول، ويكبر الخلق الرفيع والبطولة الخارقة، ويبشر بالدين الجديد، فيمدح مزاياه، ويمهد الطريق للشعراء الإسلاميين بعده على مدى القرون في امتداح الإسلام والنبي الكريم.

و لقد كان هذا المديح في بدايته يقتصر على امتداح شمائله وقيمه الحميدة، ورسالته الإسلامية وهو حي.

"ولما قضى انصرف الشعراء إلى الثناء عليه وتعداد صفاته والإشادة بالدين الإسلامي، ويعتبر هذا كله من المديح لأنه يتوجه بما يحمل من كلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم كأنه موجود حي يناجيه ويكلمه فيسمعه ويلبيه، كما أنه يحقق ميزات ومبادئ هذا الفن من خلال تمدح لشجاعته واستحسان لأخلاقه ومزاياه وإعجاب بصباحة وجهه، فقد قال الصفدي في شرح لامية العجم يصف المديح: "وما زال الشعراء يصفون الممدوح بالحسن والصباحة والطلاقة، ويشبهونه بالشمس والبدر والصبح".[2]

ولما كان الفتح وانتقل المسلمون إلى الشام نقلوا عصبيتهم ونزعاتهم القبلية فانصرفوا إلى حروب مذهبية ودينية وسياسية، وأكثروا فيها من ذكر الأبطال والقواد والملوك والأمراء، وغذاهم خلفاء الأمويين بالذهب فانبسطت رقعة المديح السياسي والاجتماعي والديني.

[1] المرجع نفسه، ص 12.

[2] سامي الدهان، فنون الأدب العربي للفن الغنائي، المديح، المرجع السابق، ص 82.

ولما انتقلوا إلى العراق كثر هذا المديح وتنوع، فدخل الترف وولدت طبقة ناعمة غنية، وطبقات متوسطة تعيش بقربها وتستفيد من جوارها ونعمها، وطبقة بائسة لا تصل إليها و لا تبلغ مجالسها، فتمدح من فوقها وتثني على من ينعم عليها أو تتحرق بمديح لعله يبلغ إلى المسامع والآذان، وكان الشعراء في الطبقة المتوسطة تتقرب وتمدح وتتصل بالسياسة حينا وبالمذاهب الدينية والاجتماعية أحيانا، وتثني إلى ذلك على القواد والعلماء والوجهاء.[1]

وتفرقت بعد ذلك دول الإسلام شيعا، وتقسم الملوك مناطق العالم الإسلامي، فازدادت موارد الرزق أمام الشعراء، وتفتحت أبواب المديح لكثير منهم، فزادت الوظائف – كما نقول اليوم–.

وأصبح لكل شاعر أن يطمح في أن يسافر إلى أمير يكفيه، أو ملك يلبيه، أو قائد يحميه، وامتلأت دواوين المديح بقصائد طويلة، اخترع الشعراء فيها حينا ووقف خيالهم أحيانا، فقد ألم إخوانهم قبلهم بكثير من المعاني وضاقت سبل الاختراع فأعادوا الصور والتراكيب، وتضاءلت ينابيع المديح، وخف معينه فلن يرتوي الشعراء من بحر خضم كما كانوا، ولذلك ألحوا على القديم وبدلوا في مبانيه وصوره، وأعادوا وكرروا حتى سقط المديح البليغ كما سقط العالم السياسي للإسلام في ظلمات داجية.[2]

فلما كان القرن العشرون عادت جذوة المديح إلى النفوس ونشأ في مصر شعراء حول الملوك والخلفاء يتجهون حينا إلى قصور الآستانة وحينا إلى قصور القاهرة، أو يترددون حول الوجهاء والزعماء والعلماء، أو يطرقون أبوابا جديدة في امتداح البلدان والأوطان، وما زالوا كذلك إلى اليوم.[3]

---

[1] المرجع نفسه، ص 12.

[2] سامي الدهان، فنون الأدبي العربي للفن الغنائي، المديح، المرجع السابق، ص 13.

[3] المرجع نفسه، ص 13.

وسيظلون كذلك في الأقطار العربية ما دام الشعر وحده لا يروج إلا عند ذي سلطان، أو ينفق عند ذي وجاهة ومكانة، فهو اليوم كما كان من قبل وساطة للمال والرفعة والشهرة، يقوم عند صاحبه مقام الأسرة والقوة والشهادة العلمية، لذلك جعله كثير من الشعراء سبيلا لمكانة سياسية أو نيل كرسي في الحكم.

ب. نشأة المدائح النبوية:

المدائح النبوية من فنون الشعر التي أذاعها التصوف، فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية، وباب من الأدب الرفيع: لأنها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص، وأكثر المدائح النبوية قيلت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وما يقال بعد الوفاة يسمى رثاء، ولكنه في رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى مدحا، كأنهم لحظوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم موصول الحياة، وأنهم يخاطبونه كما يخاطبون الأحياء، وقد يمكن القول بأن الثناء على الميت لا يسمى رثاء إلا إذا قيل في أعقاب الموت، ولذلك نراهم يقولون: "قال حسان يرثي النبي صلى الله عليه وسلم" ليفرقوا بين حالين من الثناء: ما كان في حياة الرسول صلى الله عليه سلم، وما كان بعد موته بخلاف ما يقع من شاعر ولد بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فإنه ثناءه عليه مديح لا رثاء، لأنه لا موجب للتفرقة بين حال وحال، ولأن الرثاء يقصد به إعلان التحزن والتفجع، على حين لا يراد بالمدائح النبوية إلا التقرب من الله سبحانه وتعالى بنشر محاسن الدين، و الثناء على شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم.[1]

وسنحاول إن شاء الله وبعونه في هذا البحث تأريخ هذا الفن من بدء ظهوره إلى اليوم، والإشادة بالشخصيات القوية التي نشرت أعلامه في تاريخ اللغة العربية، وتحليل القصائد التي أثرت في البيئات الشعبية، والكشف عم في آثار هذا الفن من الألفاظ والتعابير

[1] زكي مبارك، المدائح النبوية في الأدب العربي، منشورات المكتبة العصرية، مطبوعات الشعب، صيدا، بيروت، د ت، ص 17.

والمصطلحات، ولسنا نزعم أننا سنستقصي كل ما يتصل بهذا الفن، فهذا يحتاج إلى مجلدات، إنما نرجوا أن نشعر القارئ بأننا كشفنا النقاب عنى فن مجهول كان خليقا بأن يشغل الباحثين في تاريخ الأدب.

ومن أقدم ما مدح به الرسول صلى الله عليه وسلم قصيدة الأعشى التي يقول في مطلعها:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وعادك ما عاد السليم المسهدا

وما ذاك من عشق النساء وإنما تناسيت قبل اليوم خلة مهددا

و لكن أرى الدهر الذي هو خائن إذا أصلحت كفاه عاد فأفسدا

كهولا وشبانا فقدت وثروة فلله هذ الدهر كيف ترددا

وفيها يقول لناقته:

فآليت لا أرثي لها من كلالة ولا من حفى حتى تزور محمدا

نبي يرى مالا ترون وذكره أغار لعمري في البلاد وأنجد

له صدقات ما تعب ونائل وليس عطاء اليوم مانعه غدا

متى ما تناخي عند باب ابن هاشم تريحي وتلقي من فواضه يدا[1]

ولكن هذا ليس من المدائح النبوية: لأن الأعشى لم يقل هذا الشعر وهو صادق النية في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وإنما كانت محاولة اراد بها التقرب من نبي الإسلام، وهذا مديح أشبه بأن يوجه إلى الأجواد والكرماء من رؤساء القبائل وأمراء الولايات، ليس فيه ذكر للدين والتقوى والأخلاق.

[1] ميمون بن قيس، شرح ديوان الأعشى الكبير، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د ط، 2004، ص 102.

وأما كعب بن زهير فقد مدحه بقصيدة سارت على الزمان، وقلدها الشعراء عبر العصور، بدأها بالنسيب الخالص ثم وصف ناقته، وانتقل بعدها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يمتدح ما يحمل إلى المسلمين من قرآن جليل، ويعتذر بعد ذلك ويطلب العفو من النبي صلى الله عليه وسلم لما بدر منه.[1]

وهذه الظروف ترينا أن كعبا بن زهير لم يقل لاميته وهو مأخوذ بعاطفة دينية قوية، تسمو به إلى روح التصوف إنما هي قصيدة من قصائد المديح يقولها الرجل حين يرجو أو يخاف وليست من المدائح النبوية في شيء.

وتقع لامية كعب بن زهير في ثمانية وخمسين بيتا، وهي من الشعر المحكم الرصين وإن خلت من قوة الروح وتجري على التقاليد الأدبية لشعراء الجاهلية فيبدؤها الشاعر بهذا النسيب:

بانت سعاد فقلبي اليوم مبتول متيم إثرها لم يفد مكبول

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول[2]

ثم ينتقل فيصف الناقة وصفا مفصلا يذكر بدالية طرفة بن العبد، وهو في ذلك يتابع ما كان معروفا في العهد من التقاليد الشعرية فيقول:

أرجو وآمل أن تدنو مودتها وما أخال لدينا منك تنويل

أمست سعاد بأرض لا يبلغها إلا العناق النجيبات المراسيل[3]

إلى أن يقول في مدح الرسول صلى الله عليه سلم:

[1] سامي الدهان، فنون الأدب العربي للفن الغنائي المديح، المرجع السابق، ص 73.

[2] الإمام: أبي سعيد الحسن بن الحسين العسكري، شعراؤنا، ديوان كعب بن زهير، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 2004، ص 26.

[3] العناق: النوق النجية، والمراسيل جمع مرسال وهي الناقة السهلة السير.

وقال كل خليل كنت آمله لا ألفينك إني عنك مشغول

فقلت خلوا سبيلي لا أبا لكم فكل ما قدر الرحمن مفعول

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوما على آلة حدباء محمول

مهلا هداك الذي أعطاك نافلة الـ قرآن فيها مواعيظ وتفصيل

ويقول بعد أبيات:

إن الرسول لنور يستضاء به وصارم من سيوف الله مسلول

في عصبة من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا

زالوا فما زال أنكاس ولا كشف عند اللقاء ولا ميل معازيل

شم العرانين أبطال لبوسهم من نسج داود في الهيجا سرابيل

والذي نقول به في هذه القصيدة لمي قل به احد من المتقدمين، فقد اهتموا بها اهتماما عظيما، وعدوها من أجل ما قيل في مدح الرسول، وعني بها الشعراء فشطروها وخمسوها وعارضوها، وأولع بشرحها فريق من كبار الرجال، ومن الذين شطروها عبد القادر سعيد الرافعي، وأول تشطيره:

باتت سعاد فقلبي اليوم مبتول و النوم والسهد مقطوع وموصول

و الجسم بعد سعاد مدنف وصب متيم إثرها لم يفد مكبول

و من الذين خسموها: شعبان بن محمد بن داود المصري المتوفي سنة 828هـ، وله ثلاثة تخاميس، مطلع التخميس الثاني:

قل للعواذل مهما شئتم قولوا فليس لي بعد من أهواه معقول

ناديت يوم النوى والدمع مسبول

وأحمد بن محمد الجرجاوي، ومطلع تخميسه:

قلبي على حب من أهواه مجبول ونقل شوقي لدى العشاق مقبول[1]

و من الذين شرحوها: مسعود بن حسن بكري القنائي، واسم شرحه: الإسعاد لحل بانت سعاد، ومحمد صالح السباعي، واسم شرحه: بلوغ المراد على بانت سعاد، وأحمد بن محمد اليمني، واسم شرحه: الجوهر الوقاد في شرح بانت سعاد، ومن الذين عارضوها ابن نباتة المصري ومطلع قصيدته:

ما الطرف بعدكم بالنوم مكحول هذا وكم بيننا من ربعكم ميل[2]

وابن سيد الناس اليعمري، واسم قصيدته: "عدة المعاد في معارضة بانت سعاد" والمطلع:

قلبي بكم يا أهيل الحي مأهول و حبله بأماني الوصل موصول

وعارضها أبو حيان الأندلسي بقصيدة سماها: "المورد العذب في معارضة قصيدة كعب" والمطلع:

لا تعذلاه فما ذوا الحب معذول العقل مختبل والقلب متبول[3]

و لقد توارث المسلمون احترام قصيدة كعب، حتى قال أبو جعفر الألبري: حدثني بعض أشياخنا بالإسكندرية بإسناده أن بعض العلماء كان لا يستفتح مجلسه إلا بقصيدة كعب فقيل له في ذلك، فقال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله قصيدة كعب أنشدها بين يديك؟

[1] زكي مبارك، المدائح النبوية في الأدب العربي، المرجع السابق، ص 26.

[2] محمود سالم محمد، ابن نباتة شاعر العصر المملوكي، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط1، 1999، ص 127.

[3] زكي مبارك، المدائح النبوية في الأدب العربي، المرجع السابق، ص 27.

فقال: نعم، وأنا أحبها وأحب من أحبها.

قال: فعاهدت الله أنني لا أخلو من قراءتها كل يوم.

قال أبو جعفر: ولم تزل الشعراء من ذلك الوقت إلى الآن يسنجون على منوالها، ويقتدون بأقوالها، تبركا بمن أنشدت بين يديه، ونسب مدحها إليه.

واهتم بها المستشرقون، فترجمها –رنيه باسيه– إلى الفرنسية، وكذلك شغلت الشراح والناسخين والطابعين في الشرق والغرب، ويمكن الحكم بأن شهرتها في البيئات الأدبية والدينية نقشت اسمها في ذهن كل من شدا في الأدب والدين.[1]

ومن الواضح أن تلك الرؤية النبوية لا تدل على شيء أكثر من اهتمام المتصوفين بتلك القصيدة، وإيمانهم بأنها ظفرت من الرسول صلى الله عليه وسلم بأحسن القبول، وجملة ما كتب في شرح قصيدة كعب، وما قيل في تشطيرها وتخميسها يبين أثرها في اللغة والأدب، ولولا ما في ألفاظها من الوعورة لشاعت في البيئات الصوفية وأصبحت من جملة الأوراد، وكان لها ما صار للبردة من السيرورة بين العوام والخواص، ومن أسباب وقوفها عند الدوائر الأدبية واللغوية ما جاء فيها من الوصف المطول للناقة، فإنه من المعاني المحلية التي لا يتذوقها غير الأعراب.[2]

ويأتي بعد شعر الأعشى، وشعر كعب بن زهير، شعر حسان بن ثابت الذي كان أكبر شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم ويمتاز بالصدق والإخلاص، وكان يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم، ويقارع خصومه على الطرائق الجاهلية، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم أوصاه أن يتعلم الأنساب من أبي بكر ليكون شعره أوجع في

[1] زكي مبارك، المدائح النبوية في الأدبي العربي، المرجع السابق، ص 82.

[2] المرجع نفسه، ص 29.

الهجاء، وكذلك استطاع بفضل ما عرف من أنساب قريش أن يهجوهم موجعا كان النبي صلى الله عليه وسلم يراه أشد عليهم من وقع النبل.

وأقوى قصيدة في مدائح حسان هي "العينية" والظرف الذي قيلت فيه يعين مذهب الشاعر فهو يقارع الخصوم ويتخذ مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، ومدح أهله سنادا لما عمد إليه من المقارعة والملاحاة، ومن حديث هذه العينية أن وفد تميم لما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم قالوا: جئنا لنفاخرك، وقد جئنا بشاعرنا وخطيبنا، فقام خطيبهم عطارد بن حاجب فتكلم، وقام خطيب الرسول صلى الله عليه وسلم ثابت بن قيس فأجاب، ثم قام شاعرهم الزبرقان من بدر فقال:[1]

نحن الكرام فلا حي يعادلنا منا الملوك وفينا يقسم الربع[2]

وكم قسرنا من الأحياء كلها عند النهاب وفضل العز يتبع[3]

ونحن نطعم عند القحط مطعمنا من الشواء إذا لم يؤنس القزع[4]

ثم ترى الناس تأتينا سراتهم من كل أرض هويا ثم نصطنع

فقام حسان فقال:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع

يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

سجية تلك منهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع

[1] زكي مبارك، المدائح النبوية في الأدب العربي، المرجع السابق، ص 32.

[2] الربع: ويقال أيضا المرباع، يراد به ربع الغنيمة وهو نصيب الرئيس دون أصحابه من يكسبون الحرب.

[3] قسرنا: قهرنا، والنهاب جمع نهب وهو الغنيمة.

[4] القزع: الغيم.

وهذه القصيدة تمجيد لأتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، والشاعر حسان بن ثابت مدفوع إليها بقوة العصبية، وليس فيها من روح الدين إلا إشارته إلى وحي القلب في قوله:

أهدي لهم مدحي قلب يؤازره فيها يحب لسان حائك صنع[1]

و حسان بن ثابت كان شاعر النبي صلى الله عليه وسلم حقا، امتدحه لصفاته ورسم الدين الإسلامي رسما موفقا فقال:

وجبريل رسول الله فينا وروح القدس ليس له كفاء

وقال الله: قد أرسلت عبدا يقول الحق إن نفع البلاء

شهدت به فقوموا صدقوه فقلتم: لا نقوم ولا نشاء[2]

وفي هذا بسط حسان ما كان من خير على يد النبي صلى الله عليه وسلم، ودعا إلى تصديقه والإيمان به فرسمه نورا يشع على العباد ورسولا هاديا إلى الرشاد، يهدي العقول الضالة والأحلام الشاردة، من يتبعه يرشد:

لقد نزلت منه على أهل يثرب ركاب هدى حلت عليهم بأسعد

نبي يرى مالا يرى الناس حوله ويتلو كتاب الله في كل مسجد

وإن قال في يوم مقالة غائب فتصديقها في اليوم أو في ضحى الغد[3]

فهو قد حل بركة على المدينة وأهلها، وفي ركابه الهدى والسعود، يتلو كتاب الله في كل مسجد، وقوله لا بد سائر إلى القلوب تؤمن به وتصدق رسالته بهديه وهذا كله

[1] رحاب عكاوي، أعلام الفكر العربي، حسان بن ثابت الأنصاري شاعر النبوة والإسلام، دار الفكر، ط1، بيروت، لبنان، 1996، ص 22.
[2] رحال عكاوي، أعلام الفكر العربي، حسان بن ثابت الأنصاري شاعر النبوة والإسلام، المصدر السابق، ص 81.
[3] المرجع نفسه، ص 62.

مديح ديني يصف الرسالة النبوية وعظمة القرآن ويشيد بالإيمان، ولكنه حين يمتدح شخص النبي صلى الله عليه وسلم يختار الصورة المثالية للرجل في خلقه وفي خلقه فيراه أحسن الناس وأجملهم:

وأحسن منك لم تر قط عيني و أجمل منك لم تلد النساء

خلقت مبرأ من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء[1]

وهذا إعجاب ليس له حد بجمال الرسول في خلقه، فهو أجمل الناس طرا لا يستثني منهم أحد، وهو أكملهم، لا يصيبه عيب ولا يبلغه نقد، فقد خلال من هذا وهذا فكان الكمال المجسم، والخلق المصفى، وبذلك يبلغ شاعرنا ذروة المديح عند العرب.

كما يضيف إليهم مديحه الديني الخالص حين يقول في تلخيص الديانة الإسلامية:

أغر عليه للنبوة خاتم من الله مشهود يلوح ويشهد

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذن: أشهد

وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد

نبي أتانا بعد يأس وفترة من الرسول والأوثان في الأرض تعبد

فأمسى سراجا مستنيرا وهاديا يلوح كما لاح الصقيل المهند

وأنذرنا نارا وبشر جنة وعلمنا الإسلام فالله نحمد[2]

فالنبي كريم في أفعاله مشرق في خصاله، عليه طابع النبوة واضح ظاهر، وقد كرمه الله فقرن اسمه إليه، حين تتلى الشهادة في الصلوات الخمس لكل يوم، وجعله منقذا

[1] المرجع نفسه، ص 82.

[2] رحاب عكاوي، أعلام الفكري العربي، حسان بن ثابت الأنصاري شاعر النبوة والإسلام، المصدر السابق، ص 82.

للعرب جاءهم بعد يأس من الرسل، وفترة من الضلال بالأوثان، فأنار لهم سبيل الحق وهداهم إلى الخير، وبشر بالجنة وأنذر بالنار.[1]

ويبين حسان فضل النبي صلى الله عليه وسلم على البرية ويده على العرب، يعدد مكارمه وأخلاقه، ويشبهه بالهلال في نوره ورحمته للعباد، ويرسم ماله من فضل في النصر والظفر في غزوات العرب ومعاركهم وانتصاراتهم على الأعداء وهكذا جمع حسان سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ومفاخره ومحامده وأياديه في السلم والحرب في الدين والدنيا معا.

ويظهر الروح الديني في مدائح حسان لمن يقرأ مراثيه للرسول صلى الله عليه وسلم، وهي مراث مصبوغة الدينية، يتكلم فيها الشاعر عن المنبر والمصلى والمسجد والوحي، ويذكر بكاء الأرض والسماوات، ويتشوق إلى لقاء النبي صلى الله عليه وسلم في الفردوس، ويشير إلى ما ورث عنه المسلمون من الرشد والهدى، وله في ذلك قصائد ثلاث دالية تفيض بالمعاني الرقيقة السمحة، وتنم عن روح ديني مصقول، ويكفي أن نقدم أولى هذه القصائد:

بطيبة رسم للرسول ومعهد ... منير وقد تعفو الرسوم وتهمد

ولا تنمحي الآيات من دار حرمة ... بها منبر الهادي الذي كان يصعد

وواضح آيات وباقي معالم ... وربع له فيه مصلى ومسجد

به حجرات كان ينزل وسطها ... من الله نور يستضاء ويوقد[2]

معالم تطمس على العهد أيها ... أتاها البلى فالآي منها تجدد

[1] سامي الدهان، فنون الأدب العربي للفن الغنائي، المديح، المرجع السابق، ص 76.

[2] الحجرات، مساكن الرسول، مفردها حجرة.

عرفت بها رسم الرسول وعهده وقبرا به واراه في الترب ملحد

إلى أن يقول:

إمام لهم يهديهم الحق جاهدا معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا

عفو عن الزلات يقبل عذرهم وإن يحسنوا فالله بالخير أجود

فبيناهم في نعمة الله بينهم دليل به نهج الطريقة يقصد

إلى أن يقول:

فبكي رسول الله يا عين عبرة ولا أعرفنك الدهر دمعك يجمد[1]

ومالك لا تبكين ذا النعمة التي على الناس منها سابغ يتغمد[2]

وما فقد الماضون مثل محمد ولا مثله حتى القيامة يفقد

إلى أن يقول في آخر القصيدة:

وليس هوائي نازعا عن ثنائه لعلي به في جنة الخلد أخلد

مع المصطفى أرجو بذاك جواره وفي نيل ذاك اليوم أسهر وأجهد[3]

وهذه القصيدة ضعيفة من الوجهة الشعرية، ولكنها من خير الشواهد لما نحن بسبيله من تاريخ المدائح النبوية والقارئ يلاحظ أن هذه المرثية لم تقل عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وإنما قيلت بعد موته بزمان بدليل قوله:

معالم لم تطمس على العهد أيها أتاها البلى فالآي منها تجدد

[1] جمد الدمع: سكن.

[2] يتغمد: يغطي ويستر.

[3] رحاب عكاوي، أعلام الفكر العربي حسان بن ثابت الأنصاري شاعر النبوة والإسلام، المصدر السابق، ص 87.

عرفت بها رسم الرسول وعهده وقبرا به واراه في الترب ملحد

ورثاء النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته بمدة فيه نزعة صوفية، ويؤيد هذا ما جاء في ختام القصيدة من رغبة الشاعر في أن يثيبه الله على مدحه بالخلد في جنة الخلد، ورجائه أن يكون من جيران المصطفى في الدار الباقية وهو يعلن أنه في نيل ذلك اليوم يسعى ويجهد، فبكاء الرسول صلى الله عليه وسلم، في هذه المرثية ليس إلا ثناء عليه وعلى دينه القويم، وليس من الرثاء المألوف الذي يقع من الشاعر حين يفجع في رئيس أو صديق.

ومن الألفاظ التي تجب الإشارة إليها بين ألفاظ هذه القصيدة كلمة "طيبة" وسيكثر ذكرها في المدائح النبوية، وكذلك وصف الرسول صلى الله عليه وسلم "الهادي" ، أما كلمة "الطريقة" في قوله:

فبيناهم في نعمة الله بينهم دليل به نهج الطريقة يقصد

فستصير كلمة اصطلاحية عند الصوفية.

وفي قصيدة أخرى يقول:

يا بكر آمنة المبارك بكرها ولدته محصنة بسعد الأسعد

ووصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه ابن آمنة من كلمات التمجيد التي أذاعها حسان، وستكثر في المدائح النبوية، وقوله في ختام إحدى القصائد:

صلى الإله ومن يحف بعرشه والطيبون على المبارك أحمد

سيصير من التعابير المألوفة في كلام من يمدحون الرسول صلى الله عليه وسلم وعبارة "صلى الإله" جملة دعائية، كان حسان يقولها في الرسول صلى الله عليه وسلم"

وفي أصحابه، ولكن هذه العبارة ستقصر فيما بعد على الرسول صلى الله عليه وسلم، وستحل محلها في الرثاء عبارة "يرحمه الله".[1]

وظل الشعراء يفعلون كما فعل حسان على مدى العصور، سواء فيهم من تدين أو من لم يتدين وقد أنشد أبو العلاء المعري في القرن الخامس في الدين الإسلامي وفي الرسول صلى الله عليه وسلم ما يشبه قول حسان على بعد الزمان بينهما فقال:

دعاكم إلى خير الأمور محمد وليس العوالي في القنا كالسوافل

حداكم على تعظيم من خلق الضحى وشهب الدجى من طالعات وآفل

و ألزمكم ما ليس يعجز حمله> أخا الضعف من فرض له ونوافل

وحث على تطهير جسم وملبس وعاقب في قذف النساء الغوافل

و حرم خمرا خلت ألباب شربها من الطيش ألباب النعام الجوافل[2]

فمدح الرسول صلى الله عليه وسلم برسالته، وعدد الفروض والنوافل، ولخص أركان الدين من طهارة وعبادة، وتحريم للخمر وذهاب مع الرشاد والخير.

حتى كان القرن السابع للهجرة، وضع محمد بن سعيد البوصيري عددا من القصائد في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وأطال في بعضها حتى بلغ في الهمزية ما ينيف على أربعمائة بيت.

بسط فيها حياة النبي صلى الله عليه وصلم وفضائله ومزاياه، ومعجزاته، ورسم في ليلة غراء وضعته فيها آمنة بنت وهب، فنالت من فخار ما لم تنله النساء، وشرفت به بناء حواء، ثم بسط النسب الشريف، وذكر خوارق الولادة ووصف تداعي الإيوان وانطفاء

[1] زكي مبارك، المدائح النبوية في الأدب العربي، المرجع السابق، ص 24.

[2] عبيد البريكي، أبو العلاء المعري من التمرد إلى العدمية، دار المعارف للطباعة والنشٍ، سوسة تونس، ط 1، 1987، ص 111.

النار، وبسط المعجزة الكبرى في القرآن من رقيق اللفظ ورائق المعنى كأنه الحب والنوى أعجب الزراع وأدهش القراء حتى حسبوا أنه سحر، وقد قال في شمائل النبي صلى الله عليه وسلم:

سيد ضحكه التبسم والمشـ ـي الهويني ونومه الإغفاء

ما سوى خلقه النسيم ولا غيـ ـر محياه الروضة الغناء[1]

فهو متئد في ميشته، جميل في تبسمه، خلقه كالنسيم رقة، ومحياه كالروضة الغناء ائتلافا، وسع العالمين حلما وعلما، فهو بحر هضم زاخر بالمجد والخلق الرفيع، ولذلك خضعت لدينه الأقوام وسارت إلى رايته الأمم، والقصيدة كلها على هذا النمط من المديح الديني تصور الإيمان والخشوع والتقوى والورع والتشفع والرجاء، والتعلق بأهداب الدين والفرح بالرسالة، وهي مهداة إلى سيد الرسالة كباقة من أفكار دينية تتقدم يوم الحشر تشفع لصاحبها يوم تجزع النفوس وتهلع القلوب.[2]

وفي قصيدة أخرى ذكر سبب نظمها في مدح النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إنه قد أصيب بفالج أقعده، فدعا إلى الله وتشفع، فلما كان في نومه رأى النبي صلى الله عليه وسلم، فمسح وجهه بيده المباركة، وألقى عليه بردة، فانتبه فإذا هو قد شفي من مرضه فنظمها وسماها لذلك بالبردة، تيمنا وتبركا، وسارت قصتها فأنشدها الناس كذلك تيمنا وتبركا، والقصيدة تنيف على ثمانين بيتا، فيها صلوات على النبي صلى الله عليه وسلم وقوف الأنبياء ببابه يلتمسون الرضى ويتشفعون، وكلهم يعرف حده.[3]

وكلهم من رسول الله ملتمس غرفا من البحر أو رشفا من الديم

[1] شرف الدين أبي عبد الله محمد بن سعيد شرحه وقدم له الأستاذ أحمد حسن بسج، ديوان البوصيري، دار الكتب العلمية، ط1، 2001، ص 16.

[2] سامي الدهان، فنون الأدب العربي للفن الغنائي المديح، المرجع السابق، ص 77.

[3] المرجع نفسه، ص 78.

و واقفون لديه عند حدهم من نقطة العلم أو من شكلة الحكم[1]

ثم يصفه كرجل وبشر فيقول:

فمبلغ العلم فيه أنه بشر و أنه خير خلق الله كلهم

أكرم بخلق نبي زانه خلق بالحسن مشتمل بالبشر متسم

كالزهر في ترف والبدر في شرف و البحر في كرم والدهم في هم

كأنه وهو فرد في جلالته في عسكر حين تلقاه وفي حشم[2]

وقد جمع البوصيري في هذه الأبيات كل ما قال القدماء في الممدوحين، فصور جمال خلقه وكرم أخلاقه في حسن وبشر، وشبهه بالزهر والبدر والبحر والدهر، وصور هيبته كأنه في عسكر عرمرم.

وتحدث بعد ذلك عن معجزاته وتكلم عن القرآن ووصف الإسراء، وعدد الغزوات، وختم بالرجاء والدعاء والتماس الشفاعة.

وقصيدة "البردة" هذه، حفظتها الأجيال الإسلامية في أقطارها، ورتلتها في مناسباتها الدينية، وتولتها المطابع في الشرق والغرب، وشرحها الشارحون منذ القرن الثامن حتى في اليوم شروحا عدة يعيينا حصرها هنا، وشطروها وخمسوها وسبعوها، وقد عارضوها مع ذلك على مدى العصور فقلدوا معانيها الجامعة وأبياتها الرائعة، فكانت سببا لميلاد خزانة في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم عامرة بالكتب والشروح والبديعيات، ومن أشهرها بديعية ابن حجة الحموي وقصائد ابن نباتة المصري، وولدت قصص المولد تنثر هذه المعاني الدينية وتستعمل صورها ومفرداتها وتتضمن بعض أبياتها.

[1] شرف الدين أبي عبد الله محمد بن سعيد، شرحه وقدم له الأستاذ: أحمد حسن بسبع، ديوان البوصيري المصدر السابق، ص 167.

[2] المصدر نفسه، ص 168.

ولم يخل القرن الماضي من شعراء امتدحوا النبي صلى الله عليه وسلم، فقد أنشأ محمود سامي البارودي قصيدة دينية سماها "كشف الغمة في مدح سيد الأمة" جعل فيها سيرة النبي صلى الله عليه وسلم من مولده إلى انتقاله، وسار فيها نظما كما سار ابن هشام في كنابه عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي متينة التراكيب تذكرنا بشاعر الرسول صلى الله عليه وسلم حسان في معانيها، والقصيدة ميمية كذلك تتحدث عن الغار والعنكبوت في خيال واسع ثم تقص علينا غزواته وحروبه والأعلام الذين اشتركوا فيها، يختمها بالرجاء والشفاعة والخشوع والخضوع فيقول:

لم يترك الدهر لي ما أستعين به على التجمل إلا ساعدي وفمي

هذا يحبر مدحي في الرسول وذا يتلو على الناس ما أزجيه من كلمي

فقد وضع لسانه وساعده رهنا لمديح النبي صلى الله عليه وسلم يتلو على الناس محامده ومزاياه وخصاله وشمائله، ثم يقول:

و إنما هي أبيات رجوت بها نيل المنى يوم تحيا بذة الرمم

نثرت فيها فريد المدح فانتظمت أحسن بمنتثر فيها ومنتظم[1]

فيرجو كشف غمته ودفع بليته، لعله يعلو بمديحه على هام السماك ويصبح السعد من خدمه فلا يخذل بعد اليوم ولا يضام بعد هذا القول، ومدحه بقصيدة أخرى "جيمية" افتتحها بالنسيب، وبسط فيها الرجاء وتشفع بالدعاء بعد الستين من عمره فهو يرى العروج إلى مديحه وسيلة من وسائل الشفاء والصحة والنجاح وبلوغ الأمجاد فهدايته وحدها رفعت البشر وسمت بهم، وجعلت أمته فريدة بين الأمم تعتز به وبرسالته وبعثه في العرب:

هو النبي الذي لولا هدايته لكان أعلم من في الأرض كالهمج[1]

[1] محمود سامي البارودي باشا، ديوان البارودي، حققه وصححه وضبطه وشرحه: محمد شفيق معروف، دار المعارف بمصر الجزء الثالث، 1972، ص 276.

يا رب بالمصطفى هب لي وإن عظمت جرائمي رحمة تعني عن الحجج

و لا تكلني إلى نفسي فإن يدي مغلولة وصباحي غير منبلج

وبنا إلى أمير شعراء العرب في العصر الحديث، أحمد شوقي، صاحب الباع الطويل في القصائد النبوية الذائعة وهو إلى حبه للإسلام ورسوله فإنه يمت بصلة إلى الشجرة النبوية الشريفة كما يقول في شعره:

أبا الزهراء قد جاوزت قدري بمدحك بيد أن لي انتسابا[2]

ولأن قصائد شوقي الإسلامية كان لها ذيوع وانتشار، وتأثير على عواطف المسلمين فقد تعرض لهجوم طاغ من المتغربين الذي رفعوا راية الغرب في ديار الإسلام وطالبوا بأن نذوب في الحضارة الغربية وأن نأخذها بخيرها وشرها بحلوها ومرها، وساءهم أن يروا شاعرا عظيما كشوقي يدعو إلى المنهل العذب والمعين الصافي حيث الهداية النبوية العظيمة.[3]

ذاعت قصائد شوقي النبوية... وسرت على كل لسان... ومن منا لا يذكر همزية شوقي في المولد النبوي الشريف:

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء

وهي كلها بليغة وجميلة ومؤثرة... وقلما نجد قصيدة تتدفق البلاغة فيها من مطلعها إلى ختامها دونما ضعف أو ركاكة أو تزيد أو تكرار، إلا هذه القصيدة الشوقية... ومنها.

---

[1] المصدر نفسه، ص 290.

[2] الشوقيات، شعر المرحوم أحمد شوقي في السياسة والتاريخ والاجتماع والوصف والنسيب، دار الكتب العلمية، المجلد الأول، بيروت، لبنان، ص 66.

[3] أحمد الجدع، دراسات في الشعر الإسلامي المعاصر، دار الضياء، ط1، عمان، الأردن، 2001، ص 278.

الروح والملك الملائك حوله للدين والدنيا به بشراء

والعرش يزهو والحظيرة تزدهي والمنتهى والسيرة العصماء

وحديثة الفرقان ضاحكة الربا بالترجمان شذية غناء

و الوحي يقطر سلسلا من سلسل واللوح والقلم البديع رواء

نظمت أسامي الرسل وهي صحيفة في اللوح واسم محمد طغراء[1]

ولا تكاد ذكرى المولد تمر على المسلمين إلا ولشوقي فيها إبداع وتألق، وعلى تكرار تناوله لهذه المناسبة العظيمة فإنك واجد في ما يقول إبداعا وجديدا... ومن روائعه في هذه الذكرى قصيدته السائرة "ذكرى المولد" التي يقول فيها:

سلوا قلبي غداة سلا وتابا لعل على الجمال له عتابا

وأطال في مطلعها من سرد الحكم البديعة والآراء الصائبة والتجارب العميقة، ثم قال:

تجلى مولد الهادي وعمت بشائره البوادي والقصابا

و أسدت للبرية بنت وهب يدا بيضاء طوقت الرقابا

لقد وضعته وهاجا منيرا كما تلد السماوات الشهابا

أبا الزهراء قد جاوزت قدري بمدحك بيد أن لي انتسابا

مدحت المالكين فزدت قدرا وحين مدحتك اجتزت السحابا

ويلتفت إلى أحوال المسلمين وقد تحكم فيهم العدو وسامهم مر العذاب، فدعا لهم:

سألت الله في أبناء ديني فإن تكن الوسيلة لي أجابا

[1] الشوقيات، شعر المرحوم أحمد شوقي في السياسة والتاريخ والاجتماع والوصف والنسيب، المصدر السابق، ص 32.

وما للمسلمين سواك حسن إذا ما النصر مسهم ونابا

ويلتفت شوقي في قصيدة أخرى فيرى العالم الإسلامي مضطربا قلقا فيقول:

فقل لرسول الله يا خير مرسل أبتك ما تدري من الحسرات

شعوبك في شرق البلاد وغربها كأصحاب كهف في عميق سبات[1]

فشوقي شاعر الدين في العصر الحديث ينظر إلى المسلمين نظرة المسلم القلق وقد هاله اضطرابهم وحيرتهم، فرأى أنهم يحتاجون إلى زعيم ويفتقرون إلى كتاب وانهم سيضطرون إلى اتباع مذهب سياسي، فأشار على قومه والأمة الإسلامية أن تعود إلى زعيمها القديم.[2]

هذه بلاغة شوقي في بعض ما أنشأه في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، بقيت على مر الزمن دررا ولآلئ رغم ما حاوله الشانئون فما غضت محاولاتهم من قدره، ولا أطفأت محاولاتهم وهجه.

والشعراء في الأقطار العربية ما يزالون يرسلون المدائح في النبي صلى الله عليه وسلم، ويصورون بطولته وكرمه وجمال خلقه وعظمة أخلاقه، وسمو رسالته، وهم كذلك يحثون قومهم على اتابع نهجه واقتفاء أثره، ويتألمون لما هم عليه من فوضى واضطراب وتفكك، ذلك ما يردده شعراء العرب اليوم يمدحون النبي صلى الله عليه وسلم، لكل ذكرى ويستعيدون تاريخه وسيرته لكل مناسبة ولهذا نجد في كل ديوان شعرا في النبي صلى الله عليه وسلم يشيد باسمه.

كما أشاد القدماء منذ حسان، وهو كثير لا سبيل لنا لإحصائه أو عرضه، فالشاعر الإسلامي المعاصر "محمد ضياء الدين الصابوني" ممن أخلصوا شعرهم ووقفوا شعروهم

[1] الشوقيات، شعر المرحوم أحمد شوقي في السياسة والتاريخ والاجتماع والوصف والنسيب، المصدر السابق، ص 66.

[2] أحمد الجدع، دراسات في الشعر الإسلامي المعاصر، المرجع السابق، ص 279.

على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلازم المدينة المنورة التي سماها رسول الله "طيبة" وشدا أشعاره كلها بحب رسول الله حتى فاز بلقب "شاعر طيبة" وقد تغنى الشاعر بالرسول صلى الله عليه وسلم وصفاته وغزواته... ودعوته..

ولم يترك مناسبة إلى وكان له فيها قصيدة يشيد فيها بالرسول صلى الله عليه وسلم والرسالة، يقول من قصيدة "بشراك يا دنيا" وهي من قصائد المولد النبوي الشريف:

بشراك يا دنيا فتيهي وافخري في مولد الهادي البشير المنذر

بشراك فالآمال مشرقة السنا و الكون يزهو بالربيع الأنور

قبس من الرحمن شع ضياؤه والصبح لولا نوره لم يسفر[1]

وفي قصيدة أخرى له بعنوان "هذا ربيعك" يعلن الشاعر فرحته بالمولد الشريف ويقرر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة مهداة إلى البشرية جمعاء:

هذا ربيعك يا محمد عردا فترى الوجود مغنيا ومرددا

ما إن أطل على الوجود ضياؤه حتى أنار العالمين إلى الهدى

ويأمل الشاعر أن يثاب على قصائده في رسول الله كما أثيب عليها كعب بن زهير فقد كسا رسول الله صلى الله عليه وسلم كعب بن زهير بردته على قصيدته المشهورة "بانت سعاد":[2]

وعد الإله الصادقين بحبه لا يخلف الرحمن ذاك الموعدا

إن كان كعب قد كسته بردة فلقد كسيت على المدائح أبردا

[1] أحمد الجدع، دراسات في الشعر الإسلامي المعاصر، المرجع السابق، ص 280.

[2] ....

وإذا ما تحولت في قصائد هذا الشاعر الكبير فإنك قد تجولت في حديقة غناء وجنة وافرة من المدائح النبوية الشريفة وقارئ هذا الشعر لا يمل القراءة، ذلك لأن الشاعر يمتعه ويطربه، وينقله نقلة إلى رحاب الحب الطهور، حب الرسول صلى الله عليه وسلم وحب الإسلام... وحب المسلمين... ولك أن تقرأ قصيدته "مولد الحبيب" لتدرك ذلك:

سيد الكائنات تاج المعالي أكرم الرسل فضله لا يسامى

نفح الكائنات عطرا ذكيا مثلما تنفح الرياض الخزامى

فهو الشمس بهجة وبهاء هو البدر رفعة ومقاما

ثم يقول:

يا نبي الهدى شريعتك السمـ ـحاء تهدي وتوقظ الأحلاما

يا رسول الله الهدى طريقك حق نشر الحب والإخا والسلاما[1]

ولقد كان السياب شاعر الحزب الشيوعي لفترة من الزمن، ثم تركه إلى الاتجاه الوطني القومي، ثم كان أخريات أيامه شاعرا مسلم صافي الإسلام دافئ الإيمان وله في مسيرته الإيمانية التي ختم بها حياته عدد من القصائد الرائقة، وعلى رأسها قصيدة في المولد النبوي الشريف بعنوان "مولد المختار" أجاد فيها وأبدع، ويبدأ السياب قصيدته بتصوير الأجواء التي ولد فيها الرسول صلى الله عليه وسلم، كانت كما يقول، جاهلية شاع فيها الظلم والفسق وإراقة الدماء...

دموع اليتامى في دجى الليل تقطر ونوح الثكالى عاصف فيه يصفر

و أغفى على الآهات طفل ميتم تقطر فيه الحقد أم وتبذر

[1] أحمد الجدع، دراسات في شعر الإسلامي المعاصر، المرجع السابق، ص 281.

إذا جن ليل في الصحارى ولألأت نجوم وقد يخضل ليل ويقمر

ففي كل قلب من دجى الليل سدفة وفي كل عقل ظلمة ليس تسفر[1]

في هذه الظلمات المطبقة أذن الله أن يشرق النور النبوي حتى يبددها وقد عبر السياب عن هذا النور الإلهي تعبيرا محلقا:

و أشرقت فاعتزت نواويس في الدجى و أوشك موتى أن يهبوا وينشروا

نبي الهدى يا نفحة الله للورى و يا خير ما جاد الزمان المقتر

إذا ما افتخرنا كنت للفخر أولا و أن جاءنا نصر فذكراك تنصر

ولولاك ما اندكت عروش ولا هوى صليب على كفيه كنا نسمر[2]

هذا بالنسبة إلى ما جاء به السباب من قصائد يمدح فيها الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد نجد من جهة أخرى –أنور العطار– وعمر أبو ريشة، وأحمد مظهر العظمة وعدنان مردم– ينشدون قصائد كثيرة نشرتها الصحف وحملتها الدواوين إلى القراء، فيها مديح الأمجاد ووصف المحامد والدعاء والدعاء والرجاء بكشف الكرب ودفع اللئام عن الشام، ورسم المعارك والغزوات، وتصوير اليتيم وجهاده في جزيرة العرب لمحو الشرك ونشر التوحيد، حتى انتصر الوحي الجديد وفازت العقلية الجديدة، وقامت للعرب دولة جديدة في مشارق الأرض ومغاربها، وقد نظم الشاعر المصري محمد عبد الغني حسن ديوانا كاملا في المديح سماه "من وحي النبوة" فقد جعله تمجيدا للرسول صلى الله عليه وسلم.[3]

[1] بدر شاكر السياب، ديوان بدر شاكر السياب، دار العودة، بيروت، المجلد الثاني، 1974، ص 574.

[2] بدر شاكر السياب، ديوان بدر شاكر السياب، المصدر السابق، ص 575.

[3] سامي الدهان، فنون الأدب العربي للفن الغنائي، المديح، المرجع السابق، ص 82.

ومن خلال ما سبق نجد أننا قد برهنا على أن هذا اللون من الأدب لم ينقطع في الشعر العربي منذ حسان، وأن الشعراء اتجهوا إلى الدين وإلى النبي صلى الله عليه وسلم كلما ضاقت بهم الدنيا وأحاطت بهم الأحداث ونالتهم المصائب والكوارث فعادوا إلى الماضي يفخرون ويعتزون ويستحثون الهمم للاقتباس منه، والسير على هديه، لعل الأمجاد تعود إلى أمتنا من جديد، وتلفنا الرفعة من كل جانب، وتحيط بنا المفاخر في المستقبل.

ت. البردة ومفهوم المعارضة الأدبية:

لقد تناول كثير من الشعراء موضوع مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، ورددت الألسنة مدائحهم وبخاصة في حلقات الذكر كلما حلت مناسبة دينية وما أكثرها وحظيت القصائد الثلاث التي نظمها الشعراء كعب بن زهير والإمام البوصيري وأحمد شوقي، بمكانة طيبة بين قصائد المدح لسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وقد جمع بين هذه القصائد خط فكري يكاد يكون واحد انطلق من التسمية التي صارت علما عليها، فقد عرفت قصيدة كعب بالبردة، ومن بعده كانت بردة البوصيري ثم جاءت نهج البردة لأمير الشعراء تيمنا ببردة الرسول صلى الله عليه وسلم.

1. البردة لغويا:

ورد في المعاجم اللغوية أن البردة كساء مخطط يلتحف به.[1]

بل هي قطعة طولية من القماش الصوفي السميك الذي يستعمله الناس لستر أجسامهم أثناء النهار كما تتخذ غطاء في أثناء الليل وكانت البردة معروفة عند البدو، ومن أشهرها برود اليمن.

[1] حسن حسين، ثلاثية البردة – بردة الرسول صلى الله عليه وسلم–، دار الكتاب القطرية، د ط، 1987، ص 09.

وكان هذا النوع من اللباس معروفا في الأندلس ويبدو أن البرد معروف عند فلاحي مصر.[1]

عن أنس بن مالك قال: كان أحب الثياب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبسه "الحبرة" بل هي الحبرة بكسر الحاء وفتح الباء: وهي ضرب من نوع برود اليمن تتخذ من كتان أو قطن محبرة، أي مزينة "التحبير هو التزيين وهو التحسين".[2]

عن سهل بن سعد قال: جاءت امرأة ببردة قالت: هل تدرون مالبردة؟

قال سهل: نعم... هي الشملة منسوج في حاشيتها، قالت: يا رسول الله أني نسجت هذه بيدي أكسوكها فأخذها الرسول صلى الله عليه وسلم محتاجا إليها، والشملة هي البردة وأن ما يميز الشملة من البردة هو حياكة شيء أضافي في أطرافها "أي بعض الزينة في حاشية البرود" وعن أنس بن مالك "أن النبي صلى الله عليه وسلم كان شاكيا فخرج وهو يتكئ على أسامة بن زيد وعليه ثوب قطري قد توشح به فصلى بهم وذلك نوع من البرود".[3]

2. مفهوم المعارضة الأدبية:

يقصد بالمعارضة الأدبية النسيج على غرار عمل أدبي آخر، وقد عرفت المعارضة الأدبية قديما حينما بدأ كتاب وأدباء "أوروبا بتقليد غيرهم من الكتاب والنقاد وبخاصة الكلاسيكيين (اليونان والرومان)، وكانت جودة العمل وقيمته الأدبية تقاس بمدى مطابقته لأعمال أولئك الكتاب، أما على الساحة الأدبية العربية فقد برزت المعارضات وظهرت منذ العصر الجاهلي، وقد فسرت بعدة مفاهيم، فمنهم من قال: بأنها احتذاء

[1] رنهارت دوزي، المعجم المفصل بأسماء الملبس عند العرب، دار العربية للطباعة، د ط، 1971، ص 55.

[2] حسن حسين، ثلاثية البردة – بردة الرسول صلى الله عليه وسلم–، المرجع السابق، ص 09.

[3] الإمام ابن عيسى ابن محمد بن سورة الترمزي: مختصر الشمائل المحمدية، المكتبة الإسلامية، د ط، عمان، الأردن، 1971، ص 47.

شاعر بشاعر آخر، ومنهم من قال: أن المعارضة هي أن فلانا سار حيال فلان وعارض فلان كتاب أو قصيدة أو قصة فلان.[1]

والمعارض محب لعمل الآخر ومعجب به ومعترف ببراعة صاحبه، وهذا الإعجاب لا يتقيد بفترة زمنية محددة أو بشخصية دون شخصية.

و نجد هنا اعتراف أمير الشعراء احمد شوقي بإعجابه وتقديره للإمام البوصيري:

المادحون وأرباب الهوى تبع لصاحب البردة الفيحاء ذي القدم

ويقول:

الله يشهد أني لا أعارضه من ذا يعارض صوب العارض العرم

وهناك أمثلة كثيرة في أدبنا العربي للمعارضات الأدبية، ولم تكن المعارضة بدافع الضعف، وإنما لإظهار القدرات من خلال التنويع والوقوف على أجود الأعمال الأدبية، كما أصبح شعر المعارضة ذا قيمة أدبية لثقافة الشاعر وما يحيط به من تيارات وروافد أخرى للوقوف على الحياة الاجتماعية التي عاشها تطورها خلال تلك الحقبة الزمنية، والذي يتتبع شعر المعارضة في أدبنا العربي يجد أنه كان متجليا في جميع العصور الأدبية، وقد رصد بعض النقاد حركة المعارضة الشعرية تاريخيا ليتأكدوا من ذلك وبالتالي قسموها إلى الفترات التاريخية التالية:[2]

- المعارضة في الشعر الجاهلي.
- المعارضة في الشعر الإسلامي "صدر الإسلام".
- المعارضة في عصر الدولة الأموية.
- المعارضة في عصر الدولة العباسية.

[1] حسن حسين، ثلاثية البردة –بردة الرسول صلى الله عليه وسلم، المرجع السابق، ص 118.

[2] محمد بن سعيد بن حسين، المعارضات في الشعر، النادي الأدبي، مطابع الفرزدق الرياض، د ط، 1980، ص 09.

- المعارضة الأندلسية.
- المعارضة في العصر المملوكي.
- المعارضة في العصر الحديث.

ومن هذا المفهوم لمعنى لمعارض نقول: أن شوقي في ميميته نهج طريق البوصيري أي سلكه وعارض ميميته الميمونة مقتنيا نفس الطريق.

ملتزما بنفس الموضوعات التي طرقها البوصيري في القصيدة مترنما مقتفيا بالرسول صلى الله عليه وسلم خلقا وخلقا ومترفقا بحال المسلمين سلوكا وعملا ومتشفعا بسيد البشر من ذنبه واصفا أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم الكريم وعلو مقامه عند الله وعند البشر أجمعين تكبيرا وتعبيرا.

و عندما نذكر "البرد"، نتذكر القصيدة العصماء للإمام البوصيري التي ساقها في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ذاكرا مناقبه من يوم مولده، ومتدرجا بها حتى بعثته الميمونة لتخرج البشرية من الظلمات إلى النور، وهذه البردة ما زالت تردد في كل بقاع العالم الإسلامي، وما زالت تحتل المكان الأول بين المدائح النبوية وكل الأشعار التي خاض ناظموها هذا المجال شرفا لهم.[1]

وحين نقول "نهج البردة" فإننا لسنا بحاجة إلى تفسير كلمة نهج، إذ يتبادر للذهن مباشرة أن الشاعر قد سار فيها على طريق البردة.

فقد حظيت البردة بمكانة لم تصل إليها أي قصيدة سواها، وبخاصة عند أهل التصوف، وشطرت وخمست وسبعت، وإذا كان مقياس خلود العمل الأدبي هو الاهتمام من الناس والانتشار، فإن البردة نالت الخلود والشهرة في العالم الإسلامي، واحتلت مكانة أدبية فريدة في الأدب العربي، وفي الآداب العالمية فترجمت إلى عدة لغات كالفرنسية

[1] حسن حسين، ثلاثية البردة، بردة الرسول عليه الصلاة والسلام، المرجع السابق، ص 12.

والألمانية والإنجليزية بالإضافة إلى معرفة الفئات المسلمة لها في الهند وباكستان وإيران وغيرها، وتأثر الكثير من شعراء هذه الدول بقصيدة البردة والشعر الصوفي، وبخاصة الشاعر محمد إقبال حيث يقول:

لما أطل محمد زكت الربا و اخضر في البستان كل هشيم

وأذاعت الفردوس مكنون الشذا فإذا الورى في خظرة ونعيم[1]

ويعتبر الشعراء المداحون للرسول صلى الله عليه وسلم أن البردة كالدستور للشعر والشعراء، فقد نسج على منوالها كثير من الشعراء وعلى الرغم من أن هذا الاتجاه جديد في مدح خير البرية محمد صلى الله عليه وسلم إلا أنه لم يكن بالصورة التي كانت عليها بردة البوصيري، وقد سارع كثير من الأدباء والنقاد إلى شرح البردة، كما لقيت هذه القصيدة من الاهتمام والدراسة والبحث والمقارنة والمعارضة والتنقيب في أغوارها للوصول إلى نفسية وروحانية الشاعر الشيء الكثير.

وقد تأثر بهذه الروحانية كثير من الشعراء مثل أمير الشعراء أحمد شوقي في قصيدته "نهج البردة"، كما حاول محمود سامي البارودي معارضة البوصيري في أربعمائة وسبعة وأربعين بيتا يقول في مطلعها:

يا رائد البرق يمم دارة العلم واحد الغمام إلى حي بذي سلم

في بلدة مثل جوف العير لست أرى فيها سوى أمم تعنو إلى الصنم

وعارض أبو بكر حجة الحموي[2] وبذل جعد مضنيا في معارضة البوصيري، وشهرته بدأت بمعارضته لقصيدته فيقول:

[1] المرجع نفسه، ص 13.

[2] هو أبو المحاسن تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزواري، ولد في حماة سنة 867 هـ.

لي في ابتداء مدحكم يا عرب ذي سلم براعة تستهل الدمع في العلم

بالله سر بي فسر بي طلقوا وطني وركبوا في ضلوعي مطلق السقم

أما عائشة الباعونية[1] فقد حاولت معارضة البوصيري في قصيدة لها حيث تقول:

في حسن مطلع أقماري بذي سلم أصبحت في زمرة العشاق كالعم

أقول والدمع جار جار في مقلتي و الجار جار يهذل فيه منهم[2]

ولا يفوتنا أن نشير إلى تأثر البوصيري في بردته بابن الفارض في قصيدته التي يقول فيها:

هل نار ليلى بدت بدي سلم أم بارق لاح في الزوراء فالعلم

أرواح نعمان هلا نسمة حمرا وماء وجرة هلا نهلة بفم

يا لائما لامني في حبهم سفها كن الملام فلو أحببت لم تلم[3]

[1] هي الشيخة أم عبد الوهاب بنت يوسف بن أحمد بن ناصر الدين بن خليفة الباعونية الدمشقية، ولدت في دمشق حفظت القرآن وعمرها ثمانية سنوات تلقت العلم على يد إسماعيل الخوارزمي.

[2] عمر الفروخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، ج 1، ط1، بيروت، لبنان، 1979، ص 926.

[3] مهدي محمد ناصر الدين، ديوان بن الفارض، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1990، ص 185.

الفصل الثاني:

أحمد شوقي ونهج البردة

أ. تقديم الشاعر:

1. حياته:

ولد أحمد شوقي في حي من أحياء القاهرة يسمى "الحنفي" في أكتوبر عام 1870 من أسرة اختلط فيها الدم العربي بدماء أخرى.

و يقال أن جدته كانت وصيفة في قصر الخديوي إسماعيل، دخلت بحفيدها حين كان في الثالثة من عمره على الخديوي، فنظر إليه فوجد بصره مشدودا إلى السماء فيطلب بدرة من الذهب رماها عند قدمي الطفل، فتحولت عيني الطفل إليها و اخذ يلعب بها.

فقال الخديوي لجدته: افعلي ذلك معه حتى يتعود، فأجابت إجابتها المشهورة: "هذا دواء لا يخرج من صيدليتك"، فقال: تعالي به إلي متى شئت حتى أنثر الذهب تحت قدميه، و قد عاش شوقي معها في جو مترف فنشأ نشأة ارستقراطية.

دخل شوفي وهو في الرابعة من عمره كتاب الشيخ صالح وكانت الدراسة فيه تعتمد على التلقين و الحفظ ثم انتقل إلى مدرسة المبتديان الابتدائية فوجد أن الوسط التعليمي فيها مما يروقه فانتعشت نفسه، و مال إلى الدرس و التطلع، فواصل التحصيل ثم انتقل إلى التجهيزية، و هناك تفوق تفوقا عظيما فكان ترتيبه الثاني على المدرسة كلها.

و ينتهي شوقي من دراسته الثانوية في سن مبكرة "1885" ثم ينتهي من دراسة الحقوق و الترجمة عن الفرنسية 1889 وكان في أثناء دراسته للحقوق يتلقى نوعا آخر من الدراسة الأدبية، إذ تتلمذ على يد الشيخ حسين المرصفي، وقرأ معه كتاب الكشكول لبهاء الدين العاملي، و شعر البهاء زهير، وكذلك اتصل بالشيخ حنفي ناصف ولم يكد ينال إجازة مدرسته للترجمة حتى دعاه الخديوي توفيق و هنأه ووعده بإلحاقه بالعمل في القصر، و ظل شوقي ينتظر تحقيق هذا الوعد إلى أن صدر قرار بإفاده في بعثة دراسية

إلى فرنسا ليدرس الحقوق، و اختار له جامعتي مونبلييه و باريس ليلتحق بهما على التوالي، و نصحه بألا يغفل عن دراسة الأدب الفرنسي إلى جانب دراسته للحقوق.[1]

ولعل "توفيقا" كان يهدف من ذلك أن يصقل شوقي موهبته الشعرية ليصبح فيما بعد شاعر القصر، وأحاطت بالشاعر مظاهر العناية و الرعاية، ذلك أن الخديوي قد كتب إلى مدير البعثة المصرية في فرنسا يأمره بالاهتمام بأمر شوقي، و كانت باريس تعج أثناء إقامة شوقي بالمذاهب الأدبية والفنية المختلفة، فضلا عن النشاط المسرحي العريض فجذب ذلك شوقي، الذي خضع على وجه الخصوص لشعر شعراء ثلاثة هم: فيكتور هيجو ألفريد دي موسيه ولا مرتين.

وبعد أن نال شوقي إجازة الحقوق عاد إلى وطنه فألحق بديوان الخديوي حيث ظل موضع رعاية الخديوي عباس الثاني، و نشأت بين حاكم مصر و الشاعر علاقة ود وثيقة تمثلت في إيفاد شوقي في بعض مهامه السياسية، فيحب بذلك الخديوي شاعره، و يختار له زوجة، هي ابنة رجل ثري كريم، فتتسحن أحواله، و تقبل عليه الدنيا و قد اضطر الخديوي عباس للانتقال إلى تركيا طلبا للاستشفاء إثر مرض أصابه فكان الوفاء دافعا لأن ينتقل شوقي وأسرته إلى العاصمة التركية كي يبقى إلى جانبه وفي هذه الأثناء نشبت الحرب العالمية الأولى، فأصر الخديوي على عودة شوقي إلى مصر وما كاد الشاعر يطأ أرض مصر سنة 1915 حتى فوجئ بنبأ عزل الخديوي عباس من قبل الإنجليز الذين اتهموه باتصاله بالأتراك، وولوا مكانه السلطان حسين كامل و لكنه لم ينل لديه حظوة كبيرة.

وكانت انجلترا حريصة على إبعاد الشاعر عن البلاط، ونفيه خارج مصر، وخيرته في البلد الذي يريد، فاختار إسبانيا، و أقام مع عائلته في برشلونة داخل فيلا جميلة تدعى

[1] عبد المجيد الحر، أحمد شوقي أمير الشعراء ونغم اللحن و الغناء، دار الكتب العلمية، طبعة 1، 1992، ص 64.

"فلفديرا" مشادة فوق مرتفع يطل على البحر الأبيض المتوسط وهناك وسط ذلك المنظر الذي ذكره ببلاده، وزاده حنينا إلى وطنه، نظم أجمل قصائده في الحنين إلى الوطن، كمثل قصيدته التي عارض بها نونية ابن زيدون.[1]

والتي يقول فيها:

يا نائح الطلح أشباه عوادينا نشجي لواديك أم نأس لوادينا

ماذا تقص علينا غير أن يدا قصت جناحك جالت في حواشينا

رمى بنا البين أيكا غير سامرنا –أخا الغريب– وظلا غير نادينا[2]

وقد كان الكثير من الأعيان و الوجهاء و مقدري فن الشاعر أحمد شوقي، قد ذهبوا إلى السراي، يبذلون الوساطات لدى الإنجليز، من أجل إبطال قانون النفي، و إعادة الحرية لشوقي بالرجوع إلى بلده متى شاء، و حين تم العفو سمحت السلطات البريطانية للشاعر بالعودة إلى مصر سنة 1919.

وما أن بلغ القاهرة حتى خرج الشعب المصري يستقبله و يحتفي به ولقد حمله على الأعناق و الدموع تنهمر من العيون إذ اعتبره شعبه بطلا من أبطاله لا يهادن الاستعمار و لا يتواطأ مع الأعداء على حكام وطنه و لا على أبناء شعبه.[3]

ويلتفت شوقي إلى وطنه ويزجي إليه كل ما في نفسه من الحب و الود فيقول:

يا وطني لقيتك بعد يأس كأني قد لقيت بك الشبابا

وكل مسافر سيؤوب يوما إذا رزق السلامة و الإيابا

[1] عبد المجيد الحر، أحمد شوقي أمير الشعراء ونغم اللحن و الغناء، المرجع السابق، ص 64.

[2] الشوقيات: شعر المرحوم أحمد شوقي في السياسة و التاريخ و الاجتماع و الوصف و النسيب، المصدر السابق، ص 101.

[3] عبد المجيد الحر، أحمد شوقي أمير الشعراء و نغم اللحن و الغناء، المرجع السابق، ص 65.

ولا ينسى في فيض العاطفة الجياشة أن يذكر شباب مصر وقد تهافتوا على استقباله فيقول:

وحيا الله فتيانا سمحا كسوا عطف من فخر ثيابا

ملائكة إذا أحبوك يوما أحبك كل من تلقى وهابا[1]

وفي عام 1927 اختير عضوا في مجلس الشيوخ المصري و انتهز محبوه و أصدقاؤه المناسبة فأقاموا حفل تكريم استحال إلى مهرجان قومي عربي عظيم، و اشتركت فيه وفود الدول العربية وقد أعلن فيه تتويج أحمد شوقي أميرا للشعر العربي و أعلن حافظ إبراهيم باسمه شعراء العرب مبايعتهم له بإمارة الشعر.

و ذلك في قصيدته الشهيرة التي يقول فيها:

بلابل وادي النيل بالمشرق اسجعي بشعر أمير الدولتين ورجعي

أعيدي على الأسماع ما غردت به براعة شوقي في ابتداء ومطلع

إلى أن يقول:

أمير القوافي قد أتيت مبايعا وهذي وفود الشرق قد بايعت معي[2]

ويكاد النقاد يجمعون على أن شوقي كان تعويضا عادلا عن عشرة قرون خلت من تاريخ العرب بعد المتنبي لم يظهر فيها شاعر موهوب يصل ما انقطع عن وحي الشعر ويجدد ما اندرس من نهج الأدب.

[1] الشوقيات: شعر المرحوم أحمد شوقي في السياسة و التاريخ و الاجتماع و الوصف و النسيب، المصدر السابق، ص 61.

[2] المصدر نفسه، ص 62.

و كان شوقي ينقل شعره عن طبع دقيق، وحس صادق، وذوق سليم، فيأتي به مطرد السلك محكم السبك لا يشوبه ضعف و لا لغو.[1]

كما كان شوقي يتمتع برؤية حضارية لافتة للنظر ومثيرة للبحث و التقصي فإنه واسع الاطلاع، و كان واعيا بتاريخ مختلف الأمم و لا سيما تلك التي يتصل تاريخها اتصالا مباشرا بتاريخنا العربي و الإسلامي، و من الطبيعي أن ينحاز شوقي في أغلب أشعاره إلى حضارة أمته العربية إزاء مواجهة الحضارات الأخرى، و احتفى بالتراث الكلاسيكي اليوناني و الروماني، كما احتفى بتراث أمته العربي و الإسلامي، وقد ألم شوقي بشيء من فكر أرسطو السياسي، و ربما اطلع على نظام الأثينيين و إلا فكيف نفسر قول شوقي في الهمزية النبوية مخاطبا الرسول صلى الله عليه وسلم:

داء الجماعة من أرسطاليس لم يوصف له –حتى أتيت– دواء

فرسمت بعدك للعباد حكومة لا سوقة فيها و لا أمراء[2]

فالشاعر يقول أن أفكار أرسطو السياسية لم تحل مشكلة الحكم حتى تفاقمت على مر العصور وحتى جاءت الرسالة النبوية ورسمت للناس حكما لا سوقة فيه ولا أمراء.

و من المدهش حقا أن شوقي يبدي إلماما عميقا لبعض دقائق الفكر الإغريقي ففي ثنايا حديثه عن الديانة الإسلامية السمحة الغراء يقول في الهمزية أيضا ما يثير الانتباه و يلفت النظر:

بنيت على التوحيد وهي حقيقة نادى بها سقراط و القدماء[3]

[1] أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي للمدارس العليا، دار النهضة مصر، للطباعة و النشر، ط 25، د ت، ص 501.

[2] الشوقيات: شعر المرحوم أحمد شوقي في السياسة و التاريخ و الاجتماع و الوصف و النسيب، المصدر السابق، ص 36.

[3] المرجع نفسه، ص 35.

وليس غريبا أني عرف شوقي قصة سقراط الذي حوكم بعد أن ألصقت به تهمة إفساد الشباب و الاعتقاد في آلهة غريبة عن تلك الآلهة التقليدية التي كان يؤمن بها أهل زمانه في أثينا.

و تأثر شوقي بشعراء عرب قدامى كثيرين منهم ابن زيدون الذي نجد التقارب عظيما بينه و بين شوقي، و يظهر هذا التقارب في نونية شوقي التي عارض فيها نونية ابن زيدون:

يا نائح الطلح أشباه عوادينا نشجى لواديكم أو نأسى لوادينا

فشوقي استهل قصيدته بمناجاة طائر حزين يرسل شجواه بوادي الطلح و كأنه يعبر عن حزنه ولوعته مسترسلا في مناجاته رغم أحزانه وفراقه لوطنه.

و وقف خاشعا أمام المتنبي وشعره، و أشاد بكثير من الشعراء مثل: أبي فراس، و أبي العلاء، و أبي العتاهية، و العباء بن الأحنف، و البهاء زهير، و البحتري.

و قد عارض شوقي طائفة من فحول شعراء العرب و منهم البوصيري في قصيدته المشهورة البردة النبوية، فقد عارضه شوقي بقصيدته نهج البردة، وقد جاراه شوقي مستلهما نفس العناصر الفكرية التي صورها من حيث الغزل الصوفي وبيان حبه للرسول صلى الله عليه وسلم، تم تحذيره النفس من غرور الدنيا، و تتسع دائرة الثقافة و الإبداع عند شوقي حيث تعامل مع التراث القديم بنظرة شاملة توحي ما بين الشرق و الغرب وما بين المحافظة و التجديد في آن واحد، وقرأ شوقي الأدب الإنجليزي و تأثر بمسرحيات شكسبير، كما يظهر من خلال مسرحيته مصرع كليوبترا، كما تأثر بالثقافة الأوروبية وراح إلى مسارح الغرب و رأى أمام عينيه حركات التجديد الشعرية، وقد أخذ بحركات التجديد التي سادت في مطلع القرن العشرين، و قرأ أشعار المجددين و حاول أن يسير على إثرهم كما فعل في الأدب العربي و رأى في الأفق الغربي عالما آخر لا بد من الإفادة

منه، فأخذ يقلد خرافات لافنتين و غيره، ويعتبر شوقي رائدا للمسرح الشعري في العالم العربي إذ أنه أول من كتب المسرحية الشعرية مسرحية "مجنون ليلى" ثم ست مسرحيات أخرى.[1]

و مهما يكن فإن ثقافة شوقي تنمو حينا، و تنصهر و تتحد حينا آخر لتغذي التجربة و تمد أبعادها، فحيثما خطفت عبر صورة أو فكرة، فإن الطابع الداخلي يغلب عليها، و حين تتمادى و تتطاول فإنها تغدو سبيلا إلى الاستطراد و تضخيم الموضوع بالتنبؤات الخارجية الدخيلة.[2]

و لمعرفة شوقي على الصعيد الثقافي نجد أنه قد عاصر مرحلتين مهمتين في تاريخنا الأدبي هما مرحلة الإحياء و مرحلة التجديد.

في المرحلة الأولى: مرحلة إحياء التراث القديم فقد حاول تطوير فنه داخل الشكل وبخاصة في المقدمة الغزلية أو الخمرية أو المدح متأثرا بسلفه العظيم محمود سامي البارودي في شعر الوصف ثم شعر الوجدان و الشعر الوطني.

أما في المرحلة الثانية: التي عاصرها شوقي فهي معاصرته لمدرسة التجديد الرومانسية التي تنسق رؤيتها الأدبية مع الفلسفية الاجتماعية و الفكرية للطبقة المثقفة الجديدة التي استمدت ثقافتها من أوروبا، فما الفن –في مفهومها– إلا تعبير عن الذات سواء أكان هذا التعبير تغنيا بالآمال الفردية أو بكاء عليها أو هروبا من ضغوط المجتمع إلى رحابة الطبيعة، و هذه المدرسة دخلت عالم الشعر بثقافة جديدة تستمد جذورها من الأدب الأوروبي وبفهم جديد مغاير لماهية الشعر القديم ووظيفته.[3]

[1] حسن حسين، ثلاثية البردة – بردة الرسول صلى الله عليه وسلم، المرجع السابق، ص 93.

[2] إيليا الحاوي، أحمد شوقي أمير الشعراء، دار الكتاب اللبناني، ط1، 1980، الجزء الرابع، ص 46.

[3] حسن حسين، ثلاثية البردة –بردة الرسول صلى الله عليه وسلم، المرجع السابق، ص 94.

وننتهي من هذا كله إلى أن شوقي عاصر مدرستين أدبيتين، و أنه لم ينته لمدرسة معينة منها، فلا هو كلاسيكي و لا رومنسي، و لكنه استطاع أن يعبر الحدود و يحطم القيود، وشخص ببصره في كل شيء فاستطاع أن يكتب في كافة أغراض الشعر قديمه و حديثه، بل أضاف إلى استخدامات الشعر استخدام المسرح الشعري من مأساة و ملهاة.

و كان شوقي بقصائده حربا على أعداء الإسلام، التي أشاد فيها ومجده، و أثبت بها إيمانه العميق بقدسية و جلال هذا الدين الحنيف، فقد كان رحمه الله قارئا للقرآن الكريم و الأحاديث النبوية، لم يذكر اسم الله إلا و كان يتبعه بقوله: سبحانه و تعالى.

و لم يذكر اسم النبي إلا وقال صلى الله عليه وسلم، و إذا رأى جنازة مارة أمامه وقف خاشعا معظما لها رافعا سبابته للتشهد، و كان سمحا، ضحوكا، خفيف الروح، يحب الخلوة إلى نفسه و كان يكره الموت، لم يتعال على إنسان مهما صغر شأنه.[1]

2. وفاته:

وفي أيامه الأخيرة وبالتحديد في السنتين الأخيرتين من عمره تغيرت عادات شوقي فامتنع عن كل ما يغضب الله و اقتصر في حياته على القراءة في كتب الدين الإسلامي وقد أصيب في أثناء ذلك بمرض عضال ألح عليه واحتار الطب في الداء، فما كان من شوقي إلا أن اقتدى بصاحب البردة الإمام البوصيري حينما تشفع بالرسول صلى الله عليه وسلم أن يبرئه الله من مرضه فشفاه، تشفع شوقي بالرسول خاشعا ممتثلا طالبا الشفاء و الصحة فشفاه الله، وكانت لهذه الحادثة أثرها على شوقي فعاش بقية حياته يعيش عيشة الخاشعين المقدسين لله التابعين لمآثر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وقد برزت هذه الصفات الإسلامية من خلال مشاعره و أحاسيسه في أشعاره الأخيرة فيصيبه الذهول من روعة وقدرة الخالق القادر على ما أبدع فتتصدع نفسه إكبارا ورهبة و تنهمر دموعه

[1] عبد المجيد الحر، أحمد شوقي أمير الشعراء ونغم اللحن و الغناء، المرجع السابق، ص 69.

خشوعا وتقديسا و تكريما لرب العالمين فيخر ساجدا، و تنهمر أشعاره كما تنهمر دموعه راجيا عفو الله ومغفرته، وظل هكذا في خشوع وتبتل و دعاء لرب العالمين، وفي إحدى الأمسيات طلب من سائقه إيصاله إلى جريدة الجهاد، و هناك أخذ يسمر كأحسن ما يحلوا السمر، و شعر بسرور يلفه بالراحة بين من هم حوله، وفي نشوة الانبساط والفرح انتابه سعال شديد أنهك قواه، و عكر صفو مزاجه، فعاد به سائقه إلى بيته، و آوى إلى فراشه يخلد إلى الراحة و كان ذلك مساء الثالث عشر من شهر تشرين الأول سنة 1932، وفي الليلة ذاتها عاد إليه السعال مع ضيق شديد في النفس لازمه وضغط على رئتيه مدة نصف ساعة من الزمن، و ما لبث أن فارق الحياة بين ذهول المحيطين به الساعين إلى إنقاذه وحين دفن كتب على قبره بيتان من الشعر مأخوذان من "نهج البردة" تنفيذا لوصيته.

يا أحمد الخير لي جاه بتسميتي وكيف لا يتسامى بالرسول سمي

إن جل ذنبي عن الغفران لي أمل في الله يجعلني في خير معتصم[1]

وهكذا تمزقت قيتارة الشرق و انهارت قمة من قمم الشعر و الأدب العربي في العصر الحديث.

3. آثاره:

يقسم نتاج شوقي غلى قسمين –نتاج شعري ونتاج أدبي و ينحصر نتاجه الشعري في ديوان اسمه الشوقيات و يقع في أربع أجزاء من القطع الكبير و قد طبع سنة 1898 وكانت قصائده تتوزع عند المعجبين بأدبه، أو في الصحف التي تنشرها، وفطن شوقي إلى جمعها فأشار إلى أحمد محفوظ –صديق ابنه– أن يحاول جمع ما يحصل عليه من شعره، ففعل ذلك و من ثم بدأ طبع ديوان جديد، حوى الجزء الأول منه على شعر

[1] عبد المجيد الحر، أحمد شوقي أمير الشعراء و نغم اللحن و الغناء، المرجع السابق، ص 78.

السياسة و الاجتماع و التاريخ، أما الجزء الثاني فقد حوى الوصف و الغزل و بعض المتفرقات، وفي عام 1927 أعاد شوقي طبع ديوانه، وقام أولاده بإخراج الجزء الثالث و قد حوى مراثيه كلها ما عدا اثنين: الأولى في فتحي زغلول و الثانية في عبد اللطيف الصوفي، أما الجزء الرابع فقد تضمن متفرقات من المدائح، كما ذكر في هذا الديوان شعره في أولاده و الأمثال الخرافية، وفي شعره أيضا أراجيز تاريخية طبعت بعد وفاته في كتابه (دول العرب و عظماء الإسلام).

و للشاعر أيضا ستة روايات تمثيلية وضعت بين 1929 و 1932 خمس منها شعرية وهي:

مصرع كليو بترا، قمبيز، علي بك الكبير، مجنون ليلى و عنترة وواحدة نثرية هي: أميرة الأندلس و له أيضا ملهاتان هما: الست هدى، و البخيلة، و هاتان الملهاتان لم تطبعا.

و ينحصر نتائج النثري في ثلاث روايات و مقالات اجتماعية و مسرحية واحدة هي أميرة الأندلس

الروايات الثلاثة هي: عذراء الهند، و رواية لادياس أواخر الفراعنة ورواية ورقة آلاس.[1]

ولشوقي نثر مسجوع لا يختلف عن الشعر إلا في الوزن، جمع طائفة كبيرة منه في كتاب سماه "أسواق الذهب".[2]

ب. الشاعر و القصيدة:

[1] عبد المجيد الحر، أحمد شوقي أمير الشعراء و نغم اللحن و الغناء، المرجع السابق، ص 81.

[2] أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي للمدارس العليا، المرجع السابق، ص 502.

تأثر الشاعر أحمد شوقي في قصيدته "نهج البردة" بالشاعرين: كعب بن زهير و الإمام البوصيري، وإذا انتقلنا مع شوقي بين أجزاء قصيدته نجده قد بدأها بالنسيب، و قد أسرف شوقي في هذا الجانب حتى بلغ عدد أبياتها أربعة و عشرين بيتا و لعلها من أجود ما كتب الشعراء في الغزل، ثم تطرق إلى الحكمة وضرب الأمثال وهو غرض من أغراض الشعر الكلاسيكي، و جعل لذلك أربعة عشر بيتا لجأ بعدها إلى التضرع و التوسل في ستة أبيات بلغت من التركيز و قوة التصوير مدى بعيدا، وكانت معبرا إلى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، و إبراز صفاته الطيبة الكريمة في أربعة وعشرين بيتا ولم ينس شوقي أن يشير إلى معجزته الكبرى القرآن الكريم وبين منزلته بين الكتب السماوية الأخرى في ستة أبيات محكمة البناء بالغة الدلالة و المعنى.

كما تناول بعد ذلك مولد النبي صلى الله عليه وسلم و تحدث عن البشائر التي أنبأته بمجيئه في ثمانية أبيات، ثم تحدث عن الإسراء و المعراج في ثمانية أبيت أخرى لم يفته فيها أي حدث تم في هذه الليلة الغراء، كما بين مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم في ثلاثة أبيات انتقل بعدها إلى الحديث عن الهجرة و كيف نجى الله رسوله صلى الله عليه وسلم وصاحبه فلم تصل إليهما يد الكفر و الشرك.

وشوقي في قصيدته التي سار فيها على درب سلفه الإمام البوصيري لا يتجرد من ثوب التو اضع أمامه فله فضل السبق و لا قبل له بالوقوف أمامه في صوغ مديحه وكان ذلك التعبير عن التواضع في ستة أبيات تعتبر خروجا عن الغرض الرئيسي للقصيدة وخروجا على الشكل الكلاسيكي للقصيدة الدينية إلا أنه ليس مخلا بالموضوع العام و إنما هو محاولة تجديدية من قبل شوقي بقصد كسر حدة الرتابة.

ثم يعود لموضوعه الأساسي فيتحدث عن صفات الرسول صلى الله عليه وسلم و يركز على شجاعته و هيبته بين أصحابه، فضلا عن جمال طلعته وفيض كرمه و عطائه.[1]

وقد تناول شوقي ذلك في اثني عشر بيتا، ثم الحديث عن جهاد الرسول صلى الله عليه وسلم وخصص شوقي له سبعة عشر بيتا يحث الشاعر في نهايتها المسلمين على العودة إلى منابع الشريعة الإسلامية، و إحياء الفريضة السادسة و هي الجهاد في سبيل الله، وفي إطار هذا المدح المسلمين الأوائل الذين أعانوا الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوته وناصروه في سبعة أبيات ينفذ من خلالها إلى الحديث عن جهر الشريعة الإسلامية التي غيرت مجرى التاريخ في ثلاثة عشر بيتا يبين في آخرها أن التمسك بكتاب الله يؤدي إلى السعادة في الدارين، و لا يفوته بعد ذلك أن يفرد عشرة أبيات يعقد فيها مقارنة بين الحضارات السابقة و حضارة المسلمين، و أخيرا نجد أمير الشعراء يمتدح الخلفاء الراشدين و يجعل خامسهم عمر بن عبد العزيز ويبين صفاتهم السامية، كما يتناول شوقي مآثر و أعمال الخلفاء في اثني عشر بيتا استمد الخيال فيها من البيئة العربية.

و قد قصد شوقي أن ينهي حديثه عن الخلفاء الراشدين بأبي بكر الصديق ليزيد من تكريمه وليكون مسك الختام فأبو بكر مقدم على سائل الصحابة وسائر الخلفاء.

وينهي شوقي قصيدته الميمية المطولة بالصلاة و السلام على الأنبياء و على رأسهم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الذي هو خير الرسل و خاتم النبيين في أربعة عشر بيتا جاءت غاية في الطلاوة و نهاية في الحلاوة، ثم يتحول شوقي ويتجه مرة أخرى إلى العالم الإسلامي المعاصر فيدعو له بما يرفع من شأنه و يطلب من المسلمين أن

[1] حسن حسين، ثلاثية البردة –بردة الرسول صلى الله عليه وسلم، المرجع السابق، ص 96.

يهبوا من رقادهم، فكم من شعوب لا تدين بالإسلام قد استيقظت من رقادها و سادت في موكب النهضة.

ثم يتوجه إلى الله عز وجل طالبا السعادة و الهناء و النعيم لشعوب الأمة الإسلامية ويطلب بحق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أن يخفف العناء عن المسلمين و يحسن ختامهم، كما أحسن بدأهم.[1]

و تنتهي القصيدة العصماء ببيت يقول فيه:

يا رب أحسن بدء المسلمين به فتمم الفضل و امنح حسن مختتم

ت. النص الكامل "لنهج البردة":

نهج البردة*

ريم على القاع بين البان و العلم أحل سفك دمي في الأشهر الحرم[2]

رمى القضاء بعيني جر أسد يا ساكن القاع أدرك ساكن الأجم[3]

لما رنا حدثتني النفس قائلة يا ويح جنبك بالسهم المصيب رمي

جحدتها وكتمت السهم في كبدي جرح الأحبة عندي غير ذي ألم[4]

رزقت أسمح ما في الناس من خلق إذا رزقت التماس العذر في الشيم

يا لائمي في هواه –والهوى قدر– لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم

---

[1] حسن حسين، ثلاثية البردة، بردة الرسول صلى الله عليه وسلم، المرجع السابق، ص 97.

* أحمد شوقي، شعر المرحوم أحمد شوقي في السياسة و التاريخ و الاجتماع و الوصف و النسيب، المصدر السابق، ص 150.

[2] القاع: الأرض السهلة المطمئنة، البان: نوع من الشجر، العلم: الجبل.

[3] جوذر: ولد البقرة الوحشية، الأجم: الشجر الكثيف الملتف وهو المكان الذي يسكنه الأسد.

[4] جحدتها: أنكرتها مع علمي بها.

لقد أنلتك أذنا غير واعية ورب منتصت و القلب في صمم[1]

يا ناعس الطرف لا ذقت الهوى أبدا أسهرت مضناك في حفظ الهوى فنم

أفديك ألفا ولا آلو الخيال فدى أغراك بالبخل من أغراه بالكرم

سرى فصادف جرحا داميا فأسا ورب فضل على العشاق للحلم

من المؤانس بانا بالربى وقتا اللاعبات بروحي السافحات دمي

السافرات كأمثال البدور ضحى يغرن شمس الضحى بالحلي و العصم

القاتلات بأجفان بها سقم و للمنية أسباب من السقم

العاثرات بألباب الرجال و ما أقلن من عثرات الذل في الرسم

المضرمات حدودا أسفرت وجلت عن فتنة تسلم الأكباد للضرم

الحاملات لواء الحسن مختلفا أشكاله وهو فرد غير منقسم

من كل بيضاء أو سمراء زيتنا للعين و الحسن في الآرام كالعصم[2]

برعن للبصر السامي ومن عجب إذا أشرن أسرن الليث بالعنم[3]

وضعت خدي وقسمت الفؤاد ربى يرتعن في كنس منه وفي أكم[4]

يا بنت ذي اللبد المحمي جانبه ألقاك في الغاب أم ألقاك في الأطم[5]

---

[1] منتصت: الساكت سكوت المستمع أي المنصت.

[2] العصم (بضم العين): هي بياض اليدين، و العصماء من المعز: البيضاء الذراعين و سائرها أسود أو أحمر.

[3] العنم: شجرة حجازية لها ثمر أحمد تشبه به البنان المخضوبة.

[4] كنس: جمع كناس، وهو مستقر الظباء في الشجر، الأكم: مكان مرتفع.

[5] الأطم: القصر، وكل حصن مبني بالحجارة.

ما كنت أعلم حتى عن مسكنه إن المنى والمنايا مضرب الخيم

من أنبت الغصن من صمصامة ذكر و أخرج الريم من ضرغامة قرم

بيني و بينك من سمر القنا حجب ومثلها عفة عذرية العصم

لم أغش مغناك إلا في غضون كرى مغناك أبعد للمشتاق من إرم

يا نفس دنياك تخفي كل مبكية وإن بدا لك منها حسن مبتسم

فضي بتقواك فاها كلما ضحكت كما يفض أذى الرقشاء بالثرم

مخطوبة –منذ كان الناس– خاطبة من أول الدهر لم ترمل ولم تئم

يفنى الزمان ويبقى من إسائتها جرح بآدم يبكي منه في الأدم.

ملاحظة: شرح المفردات مأخوذ من ديوان الشوقيات.

لا تحفلي بجناها أو جنايتها الموت بالزهر مثل الموت بالفحم

كم نائم لا يراها وهي ساهرة لولا الأماني و الأحلام لم تنم

طورا تمدك في نعمي و عافية وتارة في قرارة البؤس و الوصم[1]

كم ظللتك و من تحجبك بصيرته إن يلق صابا يرد أو علقما يسم[2]

يا ويلتاه لنفسي رعاها ودها مسودة الصحف في مبيضة اللمم[3]

ركضتها في مربع المعصيات وما أخذت من حمية الطاعات للتخم

[1] الوصم: الألم و المرض.

[2] يسم: يرعى.

[3] دها: دهاها، مسودة الصحف: كناية عن العمل السيء، مبيضة اللمم: مبيضة الشيب.

هامت على أثر اللذات تطلبها و النفس إن يدعها داعي الصبا تهم

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه فقوم النفس بالأخلاق تستقم

و النفس من هيرها في خير عافية والنفس من شرها في مرتع وخم

تطغى إذا ما كنت من لذة و هوى طغي الجياد إذا عضت على الشكم[1]

إن جل ذنبي عن الغفران لي أمل في الله يجعلني في خير معتصم

ألقي رجائي إذا عز المجير على مفرج الكرب في الدارين و الغمم

إذا خفضت جناح الذل أسأله عز الشفاعة لم أسأل سوى أمم

و إن تقدم ذو تقوى بصالحة قدمت بين يديه عبرة الندم

لزمت باب أمير الأنبياء ومن يمسك بمفتاح باب الله يغتنم

فكل فضل و إحسان وعارفة ما بين مستلم منه و ملتزم

علقت من مدحه حبلا أعز به في يوم لا عز بالأنساب و اللحم

يزري قريضي زهير حين أمدحه ولا يقاس إلى جودي لدى هرم[2]

محمد صفوة الباري و رحمته و بغية الله من خلق و من نسم[3]

و صاحب الحوض يوم الرسل سائلة متى الورود وجبريل الأمين ضمي

سناؤه وسناه الشمس طالعة فالجرم في فلك و الضوء في علم

---

[1] الشكم: جمع شكيمة: وهي الحديدة المعترضة في الجام الفرس.

[2] زهير: هو بن أبي سلمى المدني، وهرم: هو هرم بن سنان بن أبي حارثة المري.

[3] نسيم: جمع نسمة وهي النفس أو الإنسان.

قد أخطأ النجم ما نالت أبوتة ... من سؤدد باذخ في مظهر سنم[1]

نموا إليه فزادوا في الورى شرفا ... ورب أصل لفرع في الفخار نمي

حواه في سبحات الظهر قبلهم ... نوران قاما مقام الصلب و الرحم

لما رآه بحيرا قال: نعرفه ... بما حفظنا من الأسماء و السيم[2]

سائل جراء وروح القدس هل علما ... مصون سر عن الإدراك منكتم

كم جينة وذهاب شرفت بهما ... بطحاء مكة في الإصباح و الغسم

ووحشة لابن عبد الله بينهما ... أشهى من الأنس بالأحساب و الحشم

يسامر الوحي فيها قبل مهبطه ... و من يبشر بسيمى الخير يتسم

لما دعا الصحب يستسقون من ضمإ ... فاضت يداه من التسنيم بالسنم

وظللته فصارت تستظل به ... غمامة جذبتها خيرة الديم

محبة لرسول الله أشربها ... قعائد الدير و الرهبان في القمم

إن الشمائل إن رقت يكاد بها ... يغرى الجماد و يغرى كل ذي نسم

ونودي اقرأ تعالى الله قائلها ... لم تتصل قبل من قيلت له بفم

هناك أذن للرحمن فامتلأت ... أسماع مكة من قدسية النغم

فلا تسل عن قريش كيف حيرتها ... وكيف نفرتها في السهل و العلم

تساءلوا عن عظيم قد ألهم بهم ... رمى المشايخ و الولدان باللمم[1]

---

[1] النسيم: المرتفع.

[2] بحير: هو الراعب بحيرا الذي بشر بالنبي عليه السلام، السيم: العلاقات.

يا جهلين على الهادي و دعوته ... هل تجهلون مكان الصادق العلم[2]

لبقتموه أمين القوم في صغر ... وما الأمين على قول بمتهم

فاق البدور وفاق الأنبياء فكم ... بالخلق و الخلق من حسن و من عظم

جاء النبيون بالآيات فانصرمت ... وجئتنا لحكيم غير منصرم[3]

آياته كلما طال المدى جدد ... يزينهن جلال العتق و القدم

يكاد في لفظه منه مشرقة ... يوصيك بالحق و التقوى و بالرحم

يا أفصح الناطقين الضاد قاطبة ... حديثك الشهد عند الذائق الفهم

حليت من عطل جيد البيان به ... في كل منتثر في حسن منتظم[4]

بك قول كريم أنت قائله ... تحيي القلوب و تحيي ميت الهمم

سرت بشائر بالهادي ومولده ... في الشرق و الغرب مسرى النور في الظلم

تخطفت مهج الطاغين من عرب ... وطيرت أنفس الباغين من عجم

ريعت لها شرف الإيوان فانصدعت ... من صدمة الحق لا من صدمة القدم[5]

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم ... إلا على صنم قد هام في صنم

و الأرض مملوءة جورا مسخرة ... لكل طاغية في الخلق محتكم

---

[1] اللمم: الجنون.

[2] الصادق العلم: الظاهر المشتهر.

[3] الحكيم: القرآن، منصرم: منقطع.

[4] عطل: خال من الحلي.

[5] القدم: جمع قدوم.

مسيطر الفرس يبغي في رعيته وقيصر الروم من كبر أصم عم

يعذبان عباد الله في شبه ويذبحان كما ضحيت بالغنم

و الخلق يفتك أقواهم بأضعفهم كالليث بالبهم أو كالحوت بالبلم[1]

أسرى بك الله ليلا إذ ملائكة و الرسل في المسجد الأقصى على قدم[2]

لما خطرت به التفوا بسيدهم كالشهب بالبدر أو كالجند بالعلم

صلى وراءك منهم كل ذي خطر ومن يفز بحبيب الله يأتمم

جبت السماوات أو ما فوقهن بهم على منورة درية اللجم[3]

ركوبة لك من عز و من شرف لا في الجياد ولا في الأينق الرسم[4]

مشيئة الخالق الباري وصنعته و قدرة الله فوق الشك و التهم

حتى بلغت سماء لا يطار لها على جناح ولا يسعى على قدم

وقيل كل نبي عند رتبته و يا محمد هذا العرش فاستلم

خططت للدين و الدنيا علومهما يا قارئ اللوح بل يا لامس القلم

أحطت بينهما بالسر وانكشف لك الخزائن من علم و من حكم

وضاعف القرب ما قلدت من منن بلا عداد و ما طوقت من نعم

سل عصبة الشرك حول الغار سائمة لولا مطاردة المختار لم تسم[1]

---

[1] البلم: صغار السمك.

[2] على قدم: محتشدون.

[3] منورة درية اللجم: البراق.

[4] الأنيق الرسم: النوق الشديدة الوطء لقوتها.

هل أبصروا الأثر الوضاء أم سمعوا همس التسابيح والقرآن من أمم

و هل تمثل نسج العنكبوت لهم كالغاب والحائمات الزغب كالرخم

فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم كباطل من جلال الحق منهزم

لولا يد الله بالجارين ما سلما و عينه حول ركن الدين لم يقم

تواريا بجناح الله واستترا ومن يضم جناح الله لا يضم

يا أحمد الخير لي جاه بتسميتي و كيف لا يتسامى بالرسول سمي؟

المادحون وأرباب العوى تبع لصاحب البردة الفيحاء ذي القدم[2]

مديحه فيك حب خالص و هوى وصادق الحب يملي صادق الحلم

الله يشهد أي لا أعارضه من ذا يعارض صوب العارض العرم؟[3]

وإنما أن بعض الغابطين ومن يغبط وليك لا يذمم ولا يلم[4]

هذا مقام من الرحمن مقتبس ترمى مهابته سحبان بالبكم[5]

البدر دونك في حسن وفي شرف و البحر دونك في خير وفي كرم

شم الجبال إذا طاولتها انخفضت و الأنجم الزهر ما واسمتها تسم

و الليث دونك بأسا عند وثبته إذا مشيت إلى شاكي السلاح كمي

---

[1] سائمة: راعية.

[2] صاحب البردة: هو الإمام البوصيري.

[3] صوب: هو انصباب المطر، العارض: هو السحاب المعترض في الأفق، العرم: هو المطر الشديد.

[4] الغابط: الذي يتمنى مثل ما الغير.

[5] سحبان: هو سحبان ابن وائل من بني باهلة كان يضرب به المثل في فصاحته.

تهفو إليك وإن أدميت حبتها في الحرب أفئدة الأبطال و البهم[1]

محبة الله ألقاها وهيبته على ابن آمنة في كل مصطدم

كأن وجهك تح النقل بدر دجي يضيء ملتثما أو غير ملتثم

بدر تطلع في بدر فغرته كغرة النصر تجلو داجي الظلم

ذكرت باليتم في القرآن تكرمة وقيمة اللؤلؤ المكنون في اليتم

الله قسم بين الناس رزقهم وأنت خيرت في الأرزاق و القسم

إن قلت في الأمر: لا أو قلت فيهم: نعم فخيره عند الله في "لا" منك أو "نعم"

أخوك عيسى دعا ميتا فقام له وأنت أحييت أجيالا من الأمم

و الجهل موت فإن أوتيت معجزة فابعث من الجهل أو فابعث من الرجم[2]

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم

جهل وتضليل أحلام وسفسطة فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم

لما أتى لك عفوا كل ذي حسب تكفل السيف بالجهال و العمم

والشر إن تلقه بالخير ضقت به ذرعا و إن تلقه بالشر ينحسم

سل المسيحية الغراء كم شربت بالصاب من شهوات الظالم الغلم[3]

طريدة الشرك يؤيذيها ويوسعها في كل حين قتالا ساطع الحدم[1]

---

[1] البهم: جمع بهمة هو الشجاع.

[2] الرجم: القبر.

[3] الغلم: الهائج الثائر.

لولا حماة لها هبوا لنصرتها بالسيف ما انتفعت بالرفق و الرحم

لولا مكان لعيسى عند مرسله وحرمة وجبت للروح في القدم

لسمر البدن الطهر الشريف على لوحين لم يخش مؤذيه ولم يجم[2]

جل المسيح و ذاق الصلب شائنة إن العقاب بقدر الذنب و الجرم

أخو النبي وروح الله في نزل فوق السماء ودون العرش محترم

علمتهم كل شيء يجهلون به حتى القتال وما فيه من الذمم

دعوتهم لجهاد فيه سؤددهم والحرب أس نظام الكون و الأمم

لولا لم نر للدولات في زمن ما طال من عمد أو قر من دعم

تلك الشواهد تترى كل آونة في الأعصر الغر لا في الأعصر الدهم[3]

بالأمس مالت عروش و اعتلت سرر لولا القذائف لم تثلم ولم تصم

أشياع عيسى اعدوا كل قاصمة ولم نعد سوى حالات منقصم

مهما دعيت إلى الهيجاء قمت لها ترمي بأسد ويرمي الله بالرجم

على لوائك منهم كل منتقم لله مستقتل في الله معتزم

مسبح للقاء الله مضطرم شوقا على سابح كالبرق مضطرم

لو صادف الدهر يبغي نقلة فرمى بعزمه في رحال الدهر لم يرم[1]

---

[1] الحدم: بالتحريك: شدة احتراق النار.

[2] لم يجم: لم يفزع.

[3] الدهم: المظلمة التي شاع فيها الجهل و الظلم.

بيض مفاليل من فعل الحروب بهم ... من أسيف الله لا الهندية الخذم[2]

كم في التراب إذا فتشت عن رجل ... من مات بالعهد أو من مات بالقسم

لولا مواهب في بعض الأنام لما ... تفاوت الناس في الأقدار و القيم

شريعة لك فجرت العقول بها ... عن زاخر بصنوف العلم ملتطم

يلوح حول سنا التوحيد جوهرها ... كالحلي للسيف أو الكوشي للعلم[3]

غراء حامت عليها أنفس ونهى ... ومن يجد سلسلا من حكمة يحم

نور السبيل يساس العالمون بها ... تكفلت بشباب الدهر و الهرم

يجري الزمان و أحكام الزمان على ... حكم لها نافذ في الخلق مرتسم

لما اعتلت دولة الإسلام و اتسعت ... مشت ممالكه فينورها التمم

وعلمت أمة بالقفر نازلة ... رعي القياصر بعد الشاء و النعم

كم شيد المصلحون العاملون بها ... في الشرق و الغرب ملكا باذخ العظم

للعلم و العدل و التمدين ما عزموا ... من الأمور و ما شدوا من الحزم

سرعان ما فتحوا الدنيا لملتهم ... وأنهلوا الناس من سلسالها الشيم[4]

ساروا عليها هداة الناس فهي بهم ... إلى الفلاح طريق واضح العظم

لا يهدم الدهر ركنا شاد عدلهم ... وحائط البغي إن تلمسه ينهدم

---

[1] لم يرم: لم ينتقل ويتحول.

[2] مفاليل: مثلومة من فعل الحرب به، الخضم: السيوف القاطعة.

[3] الوشي: النقش.

[4] السلسال: الماء العذب، الشبم: البارد.

نالوا السعادة في الدارين واجتمعوا على عميم من الرضوان مقتسم

دع عنك روما و أثينا وما حوتا كل اليواقيت في بغداد و التوم[1]

وخل كسرى و إيوانا يدل به هوى على أثر النيران و الأيم[2]

واترك رعسيس إن الملك مظهره في نهضة العدل لا في نهضة الهرم

دار الشرائع روما كلما ذكرت دار السلام لها ألقت يد السلم[3]

ما ضارعتها بيانا عند ملتمأم ولا حكتها قضاء عند مختصم

ولا احتوت في طرز من قياصرها على رشيد و مأمون ومعتصم

من الذين إذا سارت كتائبهم تصرفوا بحدود الأرض و التخم

ويجلسون إلى علم و معرفة فلا يدانون في عقل ولا فهم

يطأطئ العلماء الهام إن نبسوا من هيبة العلم لا من هيبة الحكم

ويمطرون فما الأرض من محل ولا بمن مات فوق الأرض من عدم[4]

خلائف الله جلوا عن موازنة فلا تقيس أملاك الورى بهم

من في البرية كالفاروق معدلة؟ وكابن عبد العزيز الخاشع الحشم؟

و كالإمام إذا ما فض مزدحما بمدمع في مآقي القوم مزدحم[5]

---

[1] التوم: جمع تومة وهي الحبة من الفضة تعمل على شكل الدرة.

[2] الأيم: الدخان.

[3] دار السلام: بغداد، السلم: هو التسليم.

[4] المحل: الجدب، العدم: الفقر.

[5] الإمام: يقصد به الإمام علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه.

الزاخر العذب في علم وفي أدب و الناصر الندب في حرب وفي سلم

أو كابن عفان و القرآن في يده يحنو عليه كما تحنو على الفطم

ويجمع الآي ترتيبا وينظمها عقدا يجيد الليالي غير منفصم

جرحان في كبد الإسلام مالتأما جرح الشهيد و جرح بالكتاب دمي

وما بلاء أبي بكر بمتهم بعد الجلائل في الأفعال و الخدم

بالحزم و العزم حاط الدين في محن أضلت الحلم من كهل و محتلم[1]

وحدن بالراشد الفاروق عن رشد في الموت وهو يقين غير منبهم[2]

يجادل القوم مستلا مهنده في أعظم الرسل قدرا كيف لم يدم؟

لا تعذلوه إذا طاف الذهول به مات الحبيب فضل الصب عن رغم[3]

يا رب صل وسلم ما أردت على نزيل عرشك خير الرسل كلهم

محيي الليالي صلاة لا يقطعها إلا بدمع من الإشفاق منسجم

مسبحا لك جنح الليل محتملا ضرا من السهد أو ضرا من الورم

رضية نفسه لا تشتكي سأما وما مع الحب إن أخلصت من سأم

وصل ربي على آل له نخب جعلت فيهم لواء البيت و الحرم[1]

---

[1] حاط الدين في محن: يشير إلى حرب الردة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم و انتصاره على المرتدين.

[2] وحدن بالراشد الفروق: إشارة إلى كمال الرشد و صدق اليقين عند عمر بن الخطاب عند إدراكه بموت الرسول صلى الله عليه وسلم.

[3] لا تعدلوه: وذلك لأن ابن الخطاب أسرع إلى سيفه و توعد من يقول بأن الرسول صلى الله عليه وسلم توفي.

بيض الوجوه ووجه الدهر ذو حلك شم النوف و أنف الحادثات حمي[2]

وأهد خير صلاة منك أربعة في الصحب صحبتهم مرعية الحرم

الراكبين إذا نادى النبي بهم ما هال من جلل و اشتد من عمم

الصابرين و نفس الأرض واجفة الضاحكين إلى الأخطار و القمم

يا رب هبت شعوب من منيتها و استيقظت أمم من رقدة العدم

سعد ونحس وملك أنت مالكه تديل من نعم فيه و من نقم

رأى قضاؤك فينا رأي حكمته أكرم بوجهك من قاض و منتقم

فالطف لأجل رسول العالمين بنا ولا تزد قومه خسفا ولا تسم

يا رب أحسنت بدء المسلمين به فتمم الفضل و امنح حسن مختتم

ث. شرح القصيدة:

يقول أمير الشعراء في مطلع قصيدته:

ريم على القاع بين البان و العلم أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

رمى القضاء بعيني جر أسد يا ساكن القاع أدرك ساكن الأجم

يبدأ شوقي قصيدته نهج البردة بالغزل، الذي اعتاده الشعراء القدامى، مقتفيا نهجهم باتخاذ الغزل مطلعا للقصيدة فتخيل محبو بته الظبي الجميل، ولم يبهره منظر الغابة الخضراء و الأغصان الملتفة و الروابي أو الجبال و أن هذا الجمال الذي بهره كما لو

[1] نخب: جمع نخبة و هو الرجل المختار.

[2] الحلك: شدة السواد، وأنف الحادثات حمي: هي كناية عن اشتداد الخطب.

كان قد سفك دمه على الرغم من تحريم سفك الدماء خلال الأشهر الحرم، و لعل جمال الغزال يبرز في عينيه اللتين يتعلق بهما من يراهما ولو كان أسدا في قسوته ووحشيته، وهذا الأسد يسكن الأجم ويطلب النجدة و الرحمة من هذا الظبي الرقيق الذي لا يثبت أمام جماله شيء.

ثم يقول:

لما رنا حدثتني النفس قائلة يا ويح جنبك بالسهم المصيب رمي

جحدتها وكتمت السهم في كبدي جرح الأحبة عندي غير ذي ألم

فقد ثبت نظراته الرقيقة و صوبها نحوه فحدثه نفسه بأن قلبه قد أصيب بسهم تلك النظرات و لا يستطيع إنسان أن يخرجه من كبده.

و هنا يبين مدى الجرح الذي أصيب به، و لكن الشاعر كرجل كتم هذا الهوى و هذا الحب و أنكر وجوده تماما لاعتقاده أن أي ألم يسببه المحبوب لا يمكن أن يؤثر في نفسه وقلبه على الرغم من لوعته ومعاناته حب هذه الأنثى التي تضارع الغزال جمالا وفتنة.[1]

ويقول:

رزقت أسمح ما في الناس من خلق إذا رزقت التماس العذر في الشيم

يا لائمي في هواه –والهوى قدر– لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم [2]

فيوضح صفات المحب المثالي إذ يذكر أن الإنسان الكريم سمح الخلق.

[1] حسن حسين، ثلاثية البردة–بردة الرسول صلى الله عليه وسلم، المرجع السابق، ص 99–98.

[2] أحمد شوقي، الشوقيات: شعر المرحوم أحمد شوقي في السياسة و التاريخ و الاجتماع و الوصف و النسيب، المصدر السابق، ص 150.

لا يعتبر كريما ولا سمحا إلا إذا كان قادرا على التماس الأعذار للناس، ولذا يطلب ممن يلومه على أنه قد أحب هذا الغزال أن يلتمس له العذر فلو مر بتجربته لما كان عاذلا، وفي قول شوقي:

لقد أنلتك أذنا غير واعية ورب منتصت و القلب في صمم

يخاطب لائمه ويقول له: يا أيها اللائم إنني أنصت إليك حقا، إني قد أنلتك أذني ولكن قلبي بعيد عنك لا يسمعك و لا يعي لومك ولا عتبك.

ويقول:

يا ناعس الطرف لا ذقت الهوى أبدا أسهرت مضناك في حفظ الهوى فنم

وبهذا يعود شوقي إلى الحبيبة و يظهر بعض صفاتها الجمالية، فهي ناعسة الطرف وسنانة العينين، يدعو لها أن لا تذوق الحب الذي يثقل كاهل المحب و يعذبه ويضنيه كما أضناه هو و أرقه، ويدعو لمحبوبته أن تنام هانئة قريرة العين.

ويقول شوقي:

أفديك ألفا ولا آلو الخيال فدى أغراك بالبخل من أغراه بالكرم

سرى فصادف جرحا داميا فأسا ورب فضل على العشاق للحلم

ويريد شوقي أن يؤكد لحبيبته أنه يستطيع أن يعطيها كل ما حاك بخياله من حب وشفقة ورحمة على الرغم من أن حبيبته تبخل عليه بأقل القليل، ويلجأ شوقي للمقابلات بين البخل و الكرم و بني المنع و إطلاق الخيال و بين السهر و النوم و بين الوعي و الصمم لتأكيد المعنى المعبر عن حالته النفسية في حيه و عن حال محبوبته بما فيها من

تناقض بينه و بينها و شاعرنا لم ير هذا الحبيب إلا عن بعد، ولكنه يأمل أن يراه في الحلم.[1]

ويقول:

من المؤانس بانا بالربى وقتا اللاعبات بروحي السافحات دمي

السافرات كأمثال البدور ضحى يغرن شمس الضحى بالحلي و العصم

القاتلات بأجفان بها سقم و للمنية أسباب من السقم [2]

فيرى الشاعر أن هناك من جمال المرأة ما يشبه شجرة البان في طولها و تمايلها كالرماح التي تسفح دم الرجل و هنا يعرض أنماط من النساء، اللعوب التي تعبث بمشارع الرجل و هؤلاء النسوة الكاشفات وجوههن يشبهن البدور في جمالهن حتى أن الشمس تغير منهن حينما يتحلين بالحلي، و يؤكد الشاعر أن حركة الجفن لهؤلاء النسوة لها تأثير يصل بالمرء إلى المنية، و يطرح بعد ذلك حقيقة و حكمة فيقول: أن للموت أسباب كثيرة، و يربط بين حركة الجفن و المؤثرات الأخرى التي تؤدي إلى الموت.

ويقول شوقي:

العاثرات بألباب الرجال و ما أقلن من عثرات الذل في الرسم

المضرمات حدودا أسفرت وجلت عن فتنة تسلم الأكباد للضرم

الحاملات لواء الحسن مختلفا أشكاله وهو فرد غير منقسم

من كل بيضاء أو سمراء زيتنا للعين و الحسن في الآرام كالعصم

[1] حسن حسين، ثلاثية البردة، بردة الرسول صلى الله عليه وسلم، المرجع السابق، ص 100.

[2] أحمد شوقي، الشوقيات: شعر المرحوم أحمد شوقي في السياسة و التاريخ و الاجتماع و الوصف و النسيب، المصدر السابق، ص 150.

برعن للبصر السامي ومن عجب إذا أشرن أسرن الليث بالعنم

وضعت خدي وقسمت الفؤاد ربى يرتعن في كنس منه وفي أكم[1]

إن الصورة المركبة التي يحاول الشاعر إبرازها من خلال الأبيات نستدل منها على أن مشية هؤلاء النسوية بما فيهن من حسن المنظر و جمال الخطوة يلعب بقلوب الرجال، و هؤلاء النسوة عندما تحمر خدودهن خجلا فإنها تبدو كما لو كانت قد أشعلت فيها النار.

و هذا الجمال لا حدود له فهو جمال متنوع في أشكاله متعدد في ألوانه و هو في نفس الوقت جمال متكامل و حسن مطلق، وهو الحسن الذي يشبهه بالقمة المرتفعة التي يعتصم بها الإنسان، فهذه النوعية من النساء الشهيرات بالجمال لا يحس بجمالهن إلا من يقدر الجمال ويصف الشاعر الكف المخضبة بالحناء فهي بجمال خضابها تأسر الرجل بإشارة من كفها و لا يأسرن الرجل فقك، بل إنهن يأسرن الأسد بهذه الإشارة.

و استسلم الشاعر لهذا الحسن وخضع له حتى أنه وضع خده وفؤاده وقلبه بساطا لهذه الظباء يرتعن في ذلك كيفما شئن ويلعبن في وديان قلبه ومرتفعاته، و هو يؤكد خضوعه وضعفه أمام هذا الحسن البارع وهيا الجمال الرائع.[2]

ويقول شوقي:

يا بنت ذي اللبد المحمي جانبه ألقاك في الغاب أم ألقاك في الأطم

ما كنت أعلم حتى عن مسكنه إن المنى والمنايا مضرب الخيم

[1] أحمد شوقي، الشوقيات، شعر المرحوم أحمد شوقي في السياسة و التاريخ و الاجتماع و الوصف و النسيب، المصدر السابق، ص 151.

[2] حسن حسين، ثلاثية البردة، بردة الرسول صلى الله عليه وسلم، المرجع السابق، ص 102.

من أنبت الغصن من صمصامة ذكر و أخرج الريم من ضرغامة قرم

نستدل من قول الشاعر على أنه اكتشف أن محبوبته بنت لأحد العظماء، و بين حيرته كيف و أين يقابلها، حيث الأغصان الملتفة و الظلام أم يلقاها في النور حيث البيوت و القصور و يؤكد بأن حبه لهذا الفتاة أصبح مقرونا بخوفه من الموت، فقد اجتمعت أمانيه ومنيته في مكان واحد وهو منزل أبيها، و قول الشاعر متسائلا: كيف يخرج مطن حيوان شرس مفترس هذا الغزال الرقيق الناعم الأبيض.

ويقول:

بيني و بينك من سمر القنا حجب ومثلها عفة عذرية العصم

لم أغش مغناك إلا في غضون كرى مغناك أبعد للمشتاق من إرم

فيؤكد شوقي مرة أخرى فقد الأمل في الوصال بينه و بين المحبوبة و هناك عائقان:

الأول: والدها ذو الحسب و النسب و المكانة، و الآخر عفتها وعذريتها اللتان تعصمانها من حبه فوصال محبوبته حلم من الأحلام و أسطورة بعيدة عن الواقع كما تبعد عن مدينة إرم ذات العماد المذكرة في القرآن.

و يقول:

يا نفس دنياك تخفي كل مبكية وإن بدا لك منها حسن مبتسم

فضي بتقواك فاها كلما ضحكت كما يفض أذى الرقشاء بالثرم

و هنا الشاعر ينصح نفسه بأن لا تغتر بمباهج الدنيا و ابتسامتها، فقد تخفي في الغيب ما يبكي و يحزن فمثلها في ذلك مثل الحية الرقطاء، فوضع شوقي تبسم الدنيا الزائف نظيرا لسم الحية.[1]

ثم يقول:

مخطوبة –منذ كان الناس– خاطبة من أول الدهر لم ترمل ولم تئم

يفنى الزمان ويبقى من إسائتها جرح بآدم يبكي منه في الأدم [2]

فهذه الدنيا في نظر الشاعر كانت مطلوبة منذ بدء الخليقة، فهي جذابة مغرية لبيني البشر فيتكالبون عليها كما يتكالب الخطاب لخطبة امرأة جميلة لا تترمل أبدا، و أنها تحمل من المآسي مالا يغني بمر الزمان، كما حدث عن كيدها لآدم عليه السلام.

و يقول الشاعر:

لا تحفلي بجناها أو جنايتها الموت بالزهر مثل الموت بالفحم

كم نائم لا يراها وهي ساهرة لولا الأماني و الأحلام لم تنم

ولعله يريد أن يقول للنفس لا تبتهجي بثمار هذه الدنيا أو جنايتها فإن الموت واحد وإن تعددت أسبابه فهناك الكثيرون من هؤلاء الناس الغافلين عن حقيقة الحياة يأملون و يمنون أنفسهم بالأماني و الأحلام غافلين عن المصائب و النكبات التي قد تحل بهم فجأة:

وكذلك يقول:

[1] فتحي عثمان، شرح البردة للبوصيري و نهج البردة لأحمد شوقي، دار المعرفة، مطبعة زهران، القاهرة، 1973، ص 59.

[2] أحمد شوقي، الشوقيات، شعر المرحوم أحمد شوقي في السياسة و التاريخ و الاجتماع و الوصف، المصدر السابق، ص 151.

طورا تمدك في نعمي و عافية وتارة في قرارة البؤس و الوصم

كم ظللتك و من تحجبك بصيرته إن يلق صابا يرد أو علقما يسم

يا ويلتاه لنفسي رعاها ودها مسودة الصحف في مبيضة اللمم

فيبين أن هذه الدنيا بقدر ما تعطيك من نعم و خير و عافية بقدر ما تأخذ منك وتصيبك بالآلام.

و يقول الشاعر أن هذه الدنيا كثيرا ما تضلل الإنسان و تحجب عنه حقيقة الحياة فيهيم في دنياه بلا بصيرة و تجعله لا يفرق بين الحلو و المر ثم يتحسر للنفس التي تقضي حياتها في اللهو و اللعب و ارتكاب المعاصي و الذنوب مسودة صفحة الحساب حتى يدركه المشيب.[1]

ويستمر شوقي في أبياته:

ركضتها في مربع المعصيات وما أخذت من حمية الطاعات للتخم

هامت على أثر اللذات تطلبها و النفس إن يدعها داعي الصبا تهم

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه فقوم النفس بالأخلاق تستقم

و النفس من هيرها في خير عافية والنفس من شرها في مرتع وخم

تطغى إذا ما كنت من لذة و هوى طغي الجياد إذا عضت على الشكم[2]

وفيها يبين أن النفس هذه أصبحت تهيم على أثر هذه اللذات الدنيوية في لهف بلا هدف فطبيعة النفس البشرية أنها تنجرف إلى اللهو و تندفع نحو الملذات ثم يميل الشاعر

[1] فتحي عثمان: شرح البردة للبوصيري و نهج البردة لشوقي، المرجع السابق، ص 63.

[2] أحمد شوقي: الشوقيات، شعر المرحوم أحمد شوقي في السياسة و التاريخ و الاجتماع و الوصف و النسيب، المصدر السابق، ص 152.

خلال هذه الأبيات إلى الإرشاد و التوجيه فيقول: إن صلاح الأمر من صلاح الأخلاق و يؤكد الشاعر أن الجزاء من جنس العمل فالنفس التي تتخذ من الخير طريقا تجني ثمارا طيبة و النفس التي تعتاد على فعل الشر فلن تجني إلا ما زرعته، و يوضح الشاعر أن النفس إذا ما تركت على هواها فإنها تغرق في الملذات، وشبهها في ذلك بالجياد إذا مال عضت على اللجم.

ثم يقول:

إن جل ذنبي عن الغفران لي أمل في الله يجعلني في خير معتصم

ألقي رجائي إذا عز المجير على مفرج الكرب في الدارين و الغمم

إذا خفضت جناح الذل أسأله عز الشفاعة لم أسأل سوى أمم

وهنا يتضرع وقي إلى الله سبحانه و تعالى ويتوسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول:

إن كان ذنبي عظيما لا يغتفر يوم الحساب فألقي رجائي على رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو شفيعنا في الدنيا و الآخرة و يقول:

و إن تقدم ذو تقوى بصالحة قدمت بين يديه عبرة الندم

لزمت باب أمير الأنبياء ومن يمسك بمفتاح باب الله يغتنم

فكل فضل و إحسان وعارفة ما بين مستلم منه و ملتزم

ويريد أن يقول: إذا تقدم الأتقياء بصالح الأعمال، تقدمت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم بدموع الندم، و من يتمسك بكتاب الله وسنة رسوله فلن يضل و لن يضيع أبدا، و يتعمق شوقي بعد ذلك في توضيح فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم

فهو صاحب الفضل و البر و الإحسان و المعروف و أن المؤمن من يأخذ عنه هذه الأخلاق الحميدة و يلتزم بها.[1]

ويقول:

علقت من مدحه حبلا أعز به في يوم لا عز بالأنساب و اللحم

يزري قريضي زهير حين أمدحه ولا يقاس إلى جودي لدى هرم [2]

فقد أراد الشاعر أن يؤكد بأنه حين مدح الرسول صلى الله عليه وسلم أراد بمدحه هذا أن يكون بينه وبين الرسول صلى الله عليه وسلم علاقة وطيدة تعزه يوم لا عز ولا كرامة إلا بشفاعة الرسول الكريم في هذا اليوم الذي لا يشفع فيه حسب و لا نسب، و يعتبر شوقي أن مدحه للرسول الكريم يقلل من قيمة شعر زهير بن أبي سلمى حينما مدح هرم بن سنان و أجزل هرم له العطاء.

ويقول أمير الشعراء في مدح المصطفى عليه الصلاة و السلام:

محمد صفوة الباري و رحمته و بغية الله من خلق و من نسم

و صاحب الحوض يوم الرسل سائلة متى الورود وجبريل الأمين ضمي

سناؤه وسناه الشمس طالعة فالجرم في فلك و الضوء في علم

قد أخطأ النجم ما نالت أبوتة من سؤدد باذخ في مظهر سنم

نموا إليه فزادوا في الورى شرفا ورب أصل لفرع في الفخار نمي

حواه في سبحات الظهر قبلهم نوران قاما مقام الصلب و الرحم

[1] فتحي عثمان، شرحا لبردة للبوصيري ونهج البردة لشوقي، المرجع السابق، ص 65.

[2] أحمد شوقي: الشوقيات، شعر المرحوم أحمد شوقي في السياسة و التاريخ و الاجتماع و الوصف و النسيب، المصدر السابق، ص 153.

فقد اختار الله جل شأنه محمدا رسول لتبليغ آخر رسالة سماوية و يكفي المسلمين أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد جمع كل الفضائل، كما يصفه بأنه صاحب الحوض و صاحب الكلمة في الماء، ويصف شوقي الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه في رفعته و نوره يماثل الشمس، وحتى أن النجم قد أخطأ في تقدير مكانته و ارتفاعه وشرفه، و أن هذه النجوم و الكواكب نسبت إلى الرسول الكريم بصفاتها التي تفخر بها كالعلو و الضياء فالأصل هنا ينتمي للفرع على غير العادة و يقول:

لما رآه بحيرا قال: نعرفه بما حفظنا من الأسماء و السيم

سائل جراء وروح القدس هل علما مصون سر عن الإدراك منكتم [1]

وهنا يعرض لنا شوقي ملامح النبوة المبكرة، و يبدأ بذكر بحيرا الراهب النصراني الذي تعرف على الرسول صلى الله عليه وسلم في أثناء رحلته من مكة إلى الشام، ثم يؤكد أن معرفة سر النبوة مستحيل ولا أحد يدري إلا إذا استطاع أن يسأل جدران الغار، أو أن يسأل جبريل عليه السلام وفي كلتا الحالتين يكون الأمر مستحيلا و السؤال محالا.[2]

ويقول:

كم جينة وذهاب شرفت بهما بطحاء مكة في الإصباح و الغسم

ووحشة لابن عبد الله بينهما أشهى من الأنس بالأحساب و الحشم

يسامر الوحي فيها قبل مهبطه و من يبشر بسيمى الخير يتسم

[1] أحمد شوقي، الشوقيات: شعر المرحوم أحمد شوقي في السياسة و التاريخ و الاجتماع و الوصف و النسيب، المصدر السابق، ص 153.

[2] فتحي عثمان، شرح البردة للبوصيري و نهج البردة لشوقي، المرجع السابق، ص 69.

لما دعا الصحب يستسقون من ضمإ فاضت يداه من التسنيم بالسنم

وهكذا يتحدث شوقي عن الطريق المشرف الذي شرفه الرسول جيئة و ذهابا بين داره و بينم غار حراء في كل صباح ومساء و هي أشهى إليه من مخالطة الأهل و الأصدقاء، ويتحدث شوقي بعد ذلك عن معجزات الرسول فيذكر واقعة سقاية الصحابة من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويقول الشاعر:

وظللته فصارت تستظل به غمامة جذبتها خيرة الديم

محبة لرسول الله أشربها قعائد الدير و الرهبان في القمم

إن الشمائل إن رقت يكاد بها يغرى الجماد و يغرى كل ذي نسم

وبذلك يؤكد الشاعر فضل الرسول صلى الله عليه وسلم و معجزاته بوصفه السحابة التي ظللته وهو في طريقه من مكة متجها إلى الشام في رحلته مع أبي طالب و بأن خير الأمطار تجمعت في هذه الغمامة، و أنها لم تكن تظل الرسول صلى الله عليه وسلم و إنما كانت تستظل بوجوده الشريف، و يستمر شوقي في وصف هذه الواقعة فيقول أن بحيرا الراهب الجالس في ديره بين الرهبان قد رقت شمائلهم و أحسوا بأن الرسول صلى الله عليه سولم الخاتم قد ظهر و أظلهم.[1]

ويقول:

ونودي اقرأ تعالى الله قائلها لم تتصل قبل من قيلت له بفم

هناك أذن للرحمن فامتلأت أسماع مكة من قدسية النغم

[1] فتحي عثمان، شرح البردة للبوصيري، و نهج البردة لشوقي، المرجع السابق، ص 74.

فلا تسل عن قريش كيف حيرتها وكيف نفرتها في السهل و العلم

تساءلوا عن عظيم قد ألهم بهم رمى المشايخ و الولدان باللمم

يا جهلين على الهادي و دعوته هل تجهلون مكان الصادق العلم

لبقتموه أمين القوم في صغر وما الأمين على قول بمتهم

فاق البدور وفاق الأنبياء فكم بالخلق و الخلق من حسن و من عظم

و هنا يعرض الشاعر موضوع بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، ويصف قول جبريل الأمين، حينما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم: (اقرأ) فلم تتصل هذه الكلمة بفم بشر قبل ذلك، ثم يصف خروج الرسول إلى مكة ورفعه للآذان هناك ويتعرض الشاعر لأثر الحدث العظيم الذي أصاب أهل مكة بهذه الدعوة، و هنا يتدخل الشاعر ويصف المعارضين للرسول الكريم بالجهل و التجاهل لأيام خلت قبل هذه الدعوة، و يتدخل الشاعر مرة أخرى ليصف مناقب الرسول صلى الله عليه وسلم مادحا إياه بالعلو في مكانته.

ويقول:

جاء النبيون بالآيات فانصرمت وجئتنا لحكيم غير منصرم

آياته كلما طال المدى جدد يزينهن جلال العتق و القدم

يكاد في لفظه منه مشرقة يوصيك بالحق و التقوى و بالرحم

يا أفصح الناطقين الضاد قاطبة حديثك الشهد عند الذائق الفهم

حليت من عطل جيد البيان به في كل منتثر في حسن منتظم

بك قول كريم أنت قائله تحيي القلوب و تحيي ميت الهمم[1]

فيسترسل شوقي في المقارنة بين النبي الكريم و ما أعطاه الله من معجزات و آيات بينات و بين من سبقه من الرسل و الأنبياء، إن هذه الآيات مهما طال عليها المدى و مر الزمن فهي جديدة دائما ملائمة في أحكامها وشرائعها، و يخرج الشاعر من الحديث عن القرآن إلى السنة النبوية فيصف صاحبها بأنه أفصح من نطق اللغة العربية و لحديثه وقعا عذبا في أذن المستمع الفاهم ويصف هذا الحديث مرة أخرى بأنه الدرر التي زينت هذه اللغة حتى أن كل كلمة أو حديث نطق به الرسول الكريم كان يحيي القلوب الميتة و يحي الهمم الميتة.

ويقول:

سرت بشائر بالهادي ومولده في الشرق و الغرب مسرى النور في الظلم

تخطفت مهج الطاغين من عرب وطيرت أنفس الباغين من عجم

ريعت لها شرف الإيوان فانصدعت من صدمة الحق لا من صدمة القدم

فيتحدث شوقي عن مولد الرسول صلى الله عليه وسلم و ما حدث من إشارات و مواقف في الشرق و الغرب فيقول:

لقد انتشرت البشائر بمولد الرسول في الشرق و الغرب كما يسري النور في الظلام فيبدده، فهذه الأنوار قد أفزعت قلوب الطغاة من العرب و أقلقت نفوس الباغين من غير العرب و هوى الإيوان و سقطت الشرفات.[2]

[1] أحمد شوقي، الشوقيات: شعر أحمد شوقي في السياسة و التاريخ و الاجتماع و الوصف و النسيب، المصدر السابق، ص 154.

[2] فتحي عثمان، شرح البردة للبوصيري و نهج البردة لشوقي، المرجع السابق، ص 86.

ويقول شوقي:

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم إلا على صنم قد هام في صنم

و الأرض مملوءة جورا مسخرة لكل طاغية في الخلق محتكم

مسيطر الفرس يبغي في رعيته وقيصر الروم من كبر أصم عم

يعذبان عباد الله في شبه ويذبحان كما ضحيت بالغنم

و الخلق يفتك أقواهم بأضعفهم كالليث بالبهم أو كالحوت بالبلم

وهو هنا يتوجه بحديثه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول: لقد جاء مولدك يا رسول الله و الناس حياتهم فوضى، تراهم دائما هائمين أمام الأصنام، و الأرض مليئة بالظلم يسخرها الطغاة لمصالحهم الشخصية و يتحكمون في خلق الله الضعفاء فهذا كسرى في الشرق يتحكم في شعبه بالغي و العدوان، و ها قيصر الروم في الغرب يتحكم في شعبه بالكبر و الظلم، فهما يعذبان الرعايا من عباد الله بلا تهم أو جرم و يعملان فيهم بالذبح كما تذبح الأغنام عند الأضحية، و الناس كذلك يظلم القوي منهم الضعيف، و يفترسه كالأسد الذي فتك بولد الغنم، أو كالحوت يلتقم صغار السمك، ويقول كذلك:

أسرى بك الله ليلا إذ ملائكة و الرسل في المسجد الأقصى على قدم

لما خطرت به التفوا بسيدهم كالشهب بالبدر أو كالجند بالعلم

صلى وراءك منهم كل ذي خطر ومن يفز بحبيب الله يأتمم

فيتحدث خلال هذه الأبيات عن مسرى الرسول من مكة إلى بيت المقدس حيث يجد الملائكة وكل الرسل ينتظرونه قائمين مرحبين، حيث التف حوله كل من كان حاضرا في هذه الليلة التفاف المرؤوسين حول الرئيس و النجوم بالبدر أو الجند حول الراية، و

يتقدم صلى الله عليه وسلم ليؤمهم في الصلاة و يصلي وراءه كل الأنبياء و الملائكة، ويؤكد شوقي أن كل من يؤمه الرسول فهو فائز في الدارين.[1]

ويقول:

جبت السماوات أو ما فوقهن بهم على منورة درية اللجم

ركوبة لك من عز و من شرف لا في الجياد ولا في الأينق الرسم

مشيئة الخالق الباري وصنعته و قدرة الله فوق الشك و التهم [2]

وهنا يتحول شوقي في حديثه إلى المعراج حيث بدأ من المسجد الأقصى صعودا إلى السماوات العلا و يصف رحلته على البراق، وهي دابة قدسية منورة ذات لجام من الأحجار الكريمة و الدرر، و جعلها ركوبة لسيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم كنوع من التشريف وليس لها نظير لا بين الجياد ولا بين النوق فهي معجزة من معجزات الله سبحانه و تعالى لتكريم محمد ولوصفه في المكانة اللائقة كخاتم الأنبياء ويمضي في حديثه عن المعراج فيقول:

حتى بلغت سماء لا يطار لها على جناح ولا يسعى على قدم

وقيل كل نبي عند رتبته و يا محمد هذا العرش فاستلم

ليصل بنا السماء السابعة حيث لم يصل إليها أي إنسان ولا أي نبي لا على الأقدام ولا بمعجزة، و عندما وصل الرسول الكريم إلى السماء السابعة دوى صوت يأمر

[1] علي النجدي ناصف، الدين و الأخلاق في شعر شوقي، مصر، 1948، ص 165.

[2] أحمد شوقي، الشوقيات: شعر المرحوم أحمد شوقي في السياسة و التاريخ و الاجتماع و الوصف و النسيب، المصدر السابق، ص 155.

جميع الأنبياء الوقوف كل في موقعه وعند درجته من السماء ويؤذن لسيدنا محمد بالاقتراب من العرش فهذا هو موقعه في القمة و الصدارة من الأنبياء ويقول:

خططت للدين و الدنيا علومهما يا قارئ اللوح بل يا لامس القلم

أحطت بينهما بالسر وانكشف لك الخزائن من علم و من حكم

وضاعف القرب ما قلدت من منن بلا عداد و ما طوقت من نعم

فيتحدث شوقي عن مدى تعلم الرسول صلى الله عليه وسلم و استفادته من علوم الدين و الدنيا ليلة الإسراء و المعراج، بهذه العلوم التي أحاك بها الرسول الكريم بعد أن قرأ اللوح المحفوظ وكاد أن يلامس القلم الذي يكتب به هذا اللوح قد أحاط بالأسرار و بكل ما في خزائن الدنيا و السماوات مطن علوم و من حكم.

ويقول:

سل عصبة الشرك حول الغار سائمة لولا مطاردة المختار لم تسم

هل أبصروا الأثر الوضاء أم سمعوا همس التسابيح والقرآن من أمم

و هل تمثل نسج العنكبوت لهم كالغاب والحائمات الزغب كالرخم [1]

وبهذا يتعرض لحادثة الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة وكيف خرج الرسول مع صديقه أبي بكر الصديق و لاختفائهما في الغار و مطاردة كفار مكة لهما ووقوفهم على باب الغار، وقد أمر الله العنكبوت أن ينسج بيته على مدخل الغار وأن تصنع الحمامة بيضها في عض قد بنته، فقد أعمى الله أبصارهم ولم يسمعوا قراءة القرآن أو التسابيح.[2]

[1] أحمد شوقي، الشوقيات: شعر المرحوم أحمد شوقي في السياسة و التاريخ و الاجتماع و الوصف و النسيب، المصدر السابق، ص 155.

[2] علي النجدي ناصف، الدين و الأخلاق في شعر شوقي المرجع السابق، ص 188.

ويقول:

فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم كباطل من جلال الحق منهزم

لولا يد الله بالجارين ما سلما و عينه حول ركن الدين لم يقم

تواريا بجناح الله واستترا ومن يضم جناح الله لا يضم

يبين شوقي هنا كيف ارتد الكفار على أعقابهم خائبين، ونرى شوقي يؤكد أن الله عز وعلا هو الذي حمى هذين الصاحبين، و جناح الله هو الذي حماهما وضمهما، و من يستظلون بجناح الله فلا خوف عليهم و لا هم يحزنون.

ويقول:

يا أحمد الخير لي جاه بتسميتي و كيف لا يتسامى بالرسول سمي؟

المادحون وأرباب العوى تبع لصاحب البردة الفيحاء ذي القدم

مديحه فيك حب خالص و هوى وصادق الحب يملي صادق الحلم

الله يشهد أي لا أعارضه من ذا يعارض صوب العارض العرم؟

وإنما أن بعض الغابطين ومن يغبط وليك لا يذمم ولا يلم

هذا مقام من الرحمن مقتبس ترمى مهابته سحبان بالبكم

فلا ينسى أمير الشعراء أحمد شوقي هنا أن يفخر بأنه تسمى باسم الرسول صلى الله عليه وسلم أحمد ويتبع هذا الثناء بقوله بأن كافة المادحين و المحبين لرسول الله الكريم هم توابع للمادح الأول و الحب الأول صاحب البردة العظيمة الإمام البوصيري، و يتواضع شوقي اتجاه هذا الشاعر العظيم ويقر حالفا بالله بأنه لم يقصد بكتابته "نهج البردة" أن يعارضه فالإمام البوصيري في نظر شوقي كالسيل الممطر و السحاب

المعترض في الأفق، وهو يقر أنه لا قبل له بهذا الشاعر الكبير و إنما يتمنى أن يكون إلى جواره طالبا من الله أن يحتسب شعره مديحا إلى جوار مدح الإمام البوصيري لخير البشر ويقول شوقي: أن تعرضه لمدح الرسول الكريم يصيبه بالبكم وكأنما هو أبكم أمام فصاحة سحبا الذي يضرب بفصاحته المثل[1] ويمضي شوقي فيقول:

البدر دونك في حسن وفي شرف و البحر دونك في خير وفي كرم

شم الجبال إذا طاولتها انخفضت و الأنجم الزهر ما واسمتها تسم

و الليث دونك بأسا عند وثبته إذا مشيت إلى شاكي السلاح كمي

فيعلن أن البدر والبحر و الجبال والنجوم و الآساد ما هي إلا صغائر إذا قورنت بالرسول صلى الله عليه وسلم البدر في الحسن والبحر في العطاء و الجبال في علوها والأنجم الزهر في لمعانها كل ذلك لا يساوي القليل إلى جانب الرسول صلى الله عليه وسلم.

ويقول:

تهفو إليك وإن أدميت حبتها في الحرب أفئدة الأبطال و البهم

محبة الله ألقاها وهيبته على ابن آمنة في كل مصطدم

كأن وجهك تح النقل بدر دجي يضيء ملتثما أو غير ملتثم

بدر تطلع في بدر فغرته كغرة النصر تجلو داجي الظلم

ذكرت باليتم في القرآن تكرمة وقيمة اللؤلؤ المكنون في اليتم

[1] علي النجدي ناصف، الدين و الأخلاق في شعر شوقي، المرجع السابق، ص 202.

وبذلك يستمر شوقي في وصف شجاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول: أنه مع شجاعته وقوة بأسه في الحرب تميل إليه قلوب الأبطال، وينتقل شوقي بعد ذلك إلى وصف وجه الرسول عليه الصلاة و السلام فيقول: أنه يضيء في غبار المعركة كما يضيء البدر في الظلام، ووجهه عليه الصلاة و السلام، كان في موقعة بدر كالقمر ضوؤه النصر الذي يبدد ظلام الشرك، ثم يتحدث عن يتم الرسول صلى الله عليه وسلم فيشير إلى قول الله تعالى "ألم يجدك يتيما فآوى" ويعلق على ذلك بأن هذا اليتم كان شيئا نبيلا، فهو بذلك متفرد كاللؤلؤ كان وحيدا كما كان ذا قيمة لا نظير لها.

ويقول:

الله قسم بين الناس رزقهم وأنت خيرت في الأرزاق و القسم

إن قلت في الأمر: لا أو قلت فيهم: نعم فخيره عند الله في "لا" منك أو "نعم"

الرزق مقسوم بين الناس و لا خيرة لهم في ذلك إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خيره الله في الرزق[1] فيقول:

أخوك عيسى دعا ميتا فقام له وأنت أحييت أجيالا من الأمم

و الجهل موت فإن أوتيت معجزة فابعث من الجهل أو فابعث من الرجم [2]

فنراه تحدث عن مكانة الرسول بين الأنبياء، فإذا كان عيسى عليه السلام بأمر الله قد أحيا الموتى فإن الرسول محمد عليه الصلاة و السلام قد أحيا أجيالا أحياها وخلصها من الجهل، و لكن شوقي يفضل معجزة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لأنه أحيا أمما وليس بضع أفراد، ويقول:

[1] فتحي عثمان، شرح البردة البوصيري ونهج البردة لشوقي، المرجع السابق، ص 108.

[2] أحمد شوقي، الشوقيات: شعر المرحوم أحمد شوقي في السياسة و التاريخ والاجتماع و الوصف و النسيب، المصدر السابق، ص 157.

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم

جهل وتضليل أحلام وسفسطة فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم

لما أتى لك عفوا كل ذي حسب تكفل السيف بالجهال و العمم

والشر إن تلقه بالخير ضقت به ذرعا و إن تلقه بالشر ينحسم

سل المسيحية الغراء كم شربت بالصاب من شهوات الظالم الغلم

طريدة الشرك يؤيذيها ويوسعها في كل حين قتالا ساطع الحدم

لولا حماة لها هبوا لنصرتها بالسيف ما انتفعت بالرفق و الرحم

لولا مكان لعيسى عند مرسله وحرمة وجبت للروح في القدم

لسمر البدن الطهر الشريف على لوحين لم يخش مؤذيه ولم يجم

جل المسيح و ذاق الصلب شائنة إن العقاب بقدر الذنب و الجرم

أخو النبي وروح الله في نزل فوق السماء ودون العرش محترم

فيتعرض شوقي لقول الكفار بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخطأ عندما غزا وحارب و الرسل و الأنبياء لم يبعثوا للقتل وسفك الدماء، ويعلق شوقي على قولهم هذا بأنه جهل و كذلك فإن الرسول، لم يقم بالسيف و يحارب الكفار إلا بعد أن نشر الدعوة و عرضها في الرسائل الثلاثة الشهيرة (رسالة كسرى، رسالة قيصر، ورسالة المقوقس)، و نضرب مثلا على هذا بالمسيحية السمحاء الأولى كم حوربت على أيدي هؤلاء الجهال الظالمين فكانوا يطاردون معتنقيها بالإيذاء و الحرق في كل حين ولولا أن قبض الله لها رجالا نصروها بالسيف لما استطاعت أن تنشر بالسماحة و الرفق، ولولا أن المسيح بن عيسى عليه السلام له مكانة عند ربه رفعه إلى السماء دون أن يصلبوه، لقد رفع الله

المسيح قبل الصلب وعاقب الواشي بأن جعله يصلب مكان عيسى، و يستطرد شوقي في وصفه بأنه أخو النبي عليه الصلاة و السلام في النبوة ويخصه بأنه روح الله قد نزل في جسد المسيح ولكنه دون العرش.[1]

ويقول:

علمتهم كل شيء يجهلون به حتى القتال وما فيه من الذمم

دعوتهم لجهاد فيه سؤددهم والحرب أس نظام الكون و الأمم

لولا لم نر للدولات في زمن ما طال من عمد أو قر من دعم

تلك الشواهد تترى كل آونة في الأعصر الغر لا في الأعصر الدهم

فيسترسل شوقي في مدحه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقول: إنه علم المسلمين كل شيء في حياتهم حتى فنون الحرب و القتل فقد دعا الرسول المسلمين للجهاد و نادى أن يكون فيه فخرهم، و أن هذا الحرب هي الأساس الذي يبنى عليه الكون وتقوم الأمم، و الأسس و النظم التي تقوم من خلالها الدول، و هذه الشواهد و الآثار تتوالى في كل زمن من الأزمان الحاضرة أو الغابرة ويقول الشاعر كذلك:

بالأمس مالت عروش و اعتلت سرر لولا القذائف لم تثلم ولم تصم

ويؤكد أن هذه التغيرات بين نظام و آخر وبين ملك و آخر ما كانت لتتم لولا الحرب ويقول:

أشياع عيسى اعدوا كل قاصمة ولم نعد سوى حالات منقصم

مهما دعيت إلى الهيجاء قمت لها ترمي بأسد ويرمي الله بالرجم

[1] فتحي عثمان، شرح البردة للبوصيري و نهج البردة لشوقي، المرجع السابق، ص 112.

على لوائك منهم كل منتقم لله مستقتل في الله معتزم

و هنا ينتقل شوقي من خلال هذه الأبيات من عصر النبوة إلى عصرنا الحالي ويطرح مقارنة بين حال المسلمين وهم في انشقاق وفرقة وبين الجحافل الصليبية التي تعد العدة للانقضاض على المسلمين.

و على الرغم من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ضرب المثل فلم يسكت على الضيم ولم يدع إلى الحرب أحس فيها أنه مظلوم إلا وقد قام في مقدمة المسلمين للقتال، و قد منحه الله إيمانا و منح المسلمين في عهده ثقة بالله ونصرة الله و انتقاما لدين الله[1]، ويقول:

مسبح للقاء الله مضطرم شوقا على سابح كالبرق مضطرم

لو صادف الدهر يبغي نقلة فرمى بعزمه في رحال الدهر لم يرم

بيض مفاليل من فعل الحروب بهم من أسيف الله لا الهندية الخذم [2]

فيشير شوقي إلى أن هؤلاء المقاتلين من المسلمين بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا يقاتلون وهم يسبحون باسم الله رغبة في لقائه ورغبة في الشهادة كوسيلة لبلوغهم الجنة التي أعدت للشهداء و المتقين، ويصف شوقي هؤلاء المقاتلين بأنهم سيوف الله قد تثلمت من كثرة القتال.

ويقول:

كم في التراب إذا فتشت عن رجل من مات بالعهد أو من مات بالقسم

[1] علي النجدي ناصف، الدين و الأخلاق في شعر شوقي، المرجع السابق، ص 227.

[2] أحمد شوقي، الشوقيات، شعر المرحوم أحمد شوقي في السياسة و التاريخ و الاجتماع و الوصف و النسيب، المصدر السابق، ص 158.

لولا مواهب في بعض الأنام لما تفاوت الناس في الأقدار و القيم

ليبين أنه جراء هذه الغزوات وهذه الحروب الإسلامية قد مات كثير من الرجال الذين وهبوا أنفسهم لنصرة دين الله ويؤكد أن لكل إنسان قدرته ودرجته في التقوى.

شريعة لك فجرت العقول بها عن زاخر بصنوف العلم ملتطم

يلوح حول سنا التوحيد جوهرها كالحلي للسيف أو الكوشي للعلم

إن الله قد وهبك يا رسول الله الشريعة السمحة في القرآن الكريم و في أحاديثك النبوية الشريفة هذه الشريعة قد فجرت في نفوس المؤمنين طاقات العقل البشري التي جاءت بتعاليم عديدة و التي تدور في أساسها حول وحدانية الله سبحانه و تعالى، ويشبه الشاعر هذه الوحدانية بأجمل ما في السيف و هو المقبض المزين بالجواهر و بأنها نقش مرسوم على راية عالية ويقول:

غراء حامت عليها أنفس ونهى ومن يجد سلسلا من حكمة يحم

نور السبيل يساس العالمون بها تكفلت بشباب الدهر و الهرم

يجري الزمان و أحكام الزمان على حكم لها نافذ في الخلق مرتسم

لما اعتلت دولة الإسلام و اتسعت مشت ممالكه فينورها التمم

وعلمت أمة بالقفر نازلة رعي القياصر بعد الشاء و النعم

وهنا يحاول أن يبين مدى ظمأ الناس و تعطشهم بهذه الوحدانية، و يمنحك الله جل وعلا معجزة القرآن و كأن هذه الشريعة الغراء نبع ماء طال من حوله الظمأ، هذه الشريعة الغراء قد تمثلتها هذه الدولة الصغيرة التي كانت لسنوات عديدة مجموعة من القبائل المتناحرة فصارت بهذه الشريعة أمة من المجاهدين، حتى إنها عندما غزت وقهرت

دولة الروم و دولة الفرس لم تطمع في ثراء هاتين الدولتين و لكنها طعمت في نشر هذه الدعوة السمحاء بين أفرادها.[1]

ويقول:

كم شيد المصلحون العاملون بها في الشرق و الغرب ملكا باذخ العظم

للعلم و العدل و التمدين ما عزموا من الأمور و ما شدوا من الحزم

سرعان ما فتحوا الدنيا لملتهم وأنهلوا الناس من سلسالها الشيم

ساروا عليها هداة الناس فهي بهم إلى الفلاح طريق واضح العظم

لا يهدم الدهر ركنا شاد عدلهم وحائط البغي إن تلمسه ينهدم

ليؤكد شاعرنا تأكيدا واضحا أن الأمة الإسلامية استمرت في هذه الفتحات وهذا التوسيع وبهذه الفتحات السريعة التي سيطروا بها على الأقوام حولوا كل الدنيا المعروفة آنذاك إلى دولة التوحيد تحكم في ضوء شريعة الله، وكأنهم قد أعطوا الضمأى إلى وحدانية الله قداسة وطهارة هذا الدين الإسلامي وجعلوهم يشربون ويروون الظمأ الذي طال بهم مداه ويقول شوقي:

نالوا السعادة في الدارين واجتمعوا على عميم من الرضوان مقتسم

دع عنك روما و أثينا وما حوتا كل اليواقيت في بغداد و التوم

وخل كسرى و إيوانا يدل به هوى على أثر النيران و الأيم

واترك رعسيس إن الملك مظهره في نهضة العدل لا في نهضة الهرم

[1] علي النجدي ناصف، الدين و الأخلاق في شعر شوقي، المرجع السابق، ص 233.

دار الشرائع روما كلما ذكرت دار السلام لها ألقت يد السلم

ما ضارعتها بيانا عند ملتمأم ولا حكتها قضاء عند مختصم[1]

ونراه يطرح في هذه الأبيات مقارنة بين شريعة الله سبحانه و تعالى التي أنزلها على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وبين الشرائع والقوانين الوضعية، فيتعرض للحضارة الرومانية وما سبقتها من حضارة اليونان، و إذا ما تعرضنا للفرس وزعيمهم كسرى، نجد أن الشاعر يصفه بأنه كان يتيه فخرا ودلالا على زعماء العالمين ببنائه القوي الذي يسمى الإيوان و لكنه يصدع ويهتز و تتهدم أركانه بمجرد البشارة بمولد النبي الكريم، و في العودة إلى الماضي نجد الشاعر يختار الحضارة الفرعونية ويؤكد أن قيمة الحضارة ليست في الأهرامات و إنما في إقامة العدل ثم يرجع ليقارن بين التشريع الروماني و شريعة الله حيث لا يجد العدل إلا في الشريعة الإسلامية، و في الأخير يؤكد أنه لا وجه للمقارنة بين الكتاب السماوي وبين الألفاظ و التراكيب الساذجة صيغ بها التشريع الروماني.[2]

ويقول:

ولا احتوت في طرز من قياصرها على رشيد و مأمون ومعتصم

من الذين إذا سارت كتائبهم تصرفوا بحدود الأرض و التخم

ويجلسون إلى علم و معرفة فلا يدانون في عقل ولا فهم

يطأطئ العلماء الهام إن نبسوا من هيبة العلم لا من هيبة الحكم

[1] أحمد شوقي، الشوقيات: شعر المرحوم أحمد شوقي في السياسة و التاريخ و الاجتماع و الوصف و النسيب، المصدر السابق، ص 159.

[2] فتحي عثمان، شرح البردة للبوصيري و نهج البردة لشوقي، المرجع السابق، ص 126.

ويمطرون فما الأرض من محل ولا بمن مات فوق الأرض من عدم

ويستمر شوقي في المقارنة ليقارن بين الرجال الذين قاموا على هذه الحضارات ويضرب مثلا بقياصرة الروم رمزا لكل الملوك السابقين فراعين أو أكاسرة مقارنا إياهم بخلفاء بين العباس الذين عاصروا بعضهم وهل يمكن أن نقارن من خلال حب التملك و شهوة الظلم، وبين ما تميز به الخلفاء: الراشد و المأمون و المعتصم؟ و بين الظلم المتجسد في تصرفات هؤلاء القياصرة وبين نشر العدل عند هؤلاء الخلفاء؟ وكان هؤلاء الخلفاء في كرمهم كالمطر يمطرون خير فإن هم أصابوا أرضا جدباء قاحلة تخضر وتجود بالخير و تشيع فيها الراحة و السكينة.

ويقول:

خلائف الله جلوا عن موازنة فلا تقيس أملاك الورى بهم

من في البرية كالفاروق معدلة؟ وكابن عبد العزيز الخاشع الحشم؟

و كالإمام إذا ما فض مزدحما بمدمع في مآقي القوم مزدحم

الزاخر العذب في علم وفي أدب و الناصر الندب في حرب وفي سلم

أو كابن عفان و القرآن في يده يحنو عليه كما تحنو على الفطم

ويجمع الآي ترتيبا وينظمها عقدا يجيد الليالي غير منفصم

جرحان في كبد الإسلام مالتأما جرح الشهيد و جرح بالكتاب دمي

وما بلاء أبي بكر بمتهم بعد الجلائل في الأفعال و الخدم

بالحزم و العزم حاط الدين في محن أضلت الحلم من كهل و محتلم

يريد شوقي أن يجعل مكانة مرموقة لهذه الفئة المؤمنة لا يرتقي إليها أحد من هؤلاء الملوك ومن ثم يشير إلى الفارق بين الملوك و القياصرة، وبين هذه الفئة المؤمنة، ويتساءل مستنكرا متعجبا: هل هناك في هذه الدنيا من يقيم العدل كالخليفة عمر بن الخطاب، و عمر ابن عبد العزيز في التواضع و الخشوع لله وكالإمام علي ابن أبي طالب في تضحيته ليلة هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم.[1]

و فداء الإمام علي بن أبي طالب بنفسه حينما عزم الكفاء قتل الرسول صلى الله عليه وسلم في تلك الليلة، ثم يعدد الصفات الحميدة في الإمام علي كرم الله وجهه و غزارة العلم، و ما كان يزهو على الناس، و لم يكن بخيلا بما لديه من علم و يبين شوقي مكانة الخليفة عثمان بن عفان حينما أمر بنسخ القرآن و شبهه بالأم التي تحنو على طفلها، ثم يعود شوقي ليطرح لمحات من التاريخ الإسلامي ولما واجهته هذه الفئة المؤمنة من قتل وتعذيب، و يطرح مأساة ذات شقين، وهي مقتل و استشهاد عثمان بن عفان و الشق الثاني هو نزيف الدم الذي سال من جسد عثمان بن عفان على أوراق المصحف، و تعود بنا ذاكرة الشاعر إلى دور أبي بكر الصديق و انتصاره على المرتدين ودوره في الفتوحات الإسلامية ويقول شوقي:

وحدن بالراشد الفاروق عن رشد في الموت وهو يقين غير منبهم

يجادل القوم مستلا مهنده في أعظم الرسل قدرا كيف لم يدم؟

لا تعذلوه إذا طاف الذهول به مات الحبيب فضل الصب عن رغم

فيذكرنا بموقف عمر بن الخطاب عند وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم عندما أذهلته المفاجأة فلم يصدق وقتها أن يموت الرسول الكريم، فيتصور عمر أن الرسول

[1] فتحي عثمان، شرح البردة البوصيري ونهج البردة لشوقي، المرجع السابق، ص 141.

صلى الله عليه وسلم كائن آخر غير البشر لن يموت، و يتدخل شوقي ملتمسا العذر لهذا الرجل الذي أحب الله ورسوله حبا ملك عليه عقله.

يا رب صل وسلم ما أردت على نزيل عرشك خير الرسل كلهم

محيي الليالي صلاة لا يقطعها إلا بدمع من الإشفاق منسجم

مسبحا لك جنح الليل محتملا ضرا من السهد أو ضرا من الورم

رضية نفسه لا تشتكي سأما وما مع الحب إن أخلصت من سأم

وصل ربي على آل له نخب جعلت فيهم لواء البيت و الحرم

بيض الوجوه ووجه الدهر ذو حلك شم النوف و أنف الحادثات حمي[1]

وهنا يصل شوقي في قصيدته إلى النهاية بالصلاة و السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلي ويسلم على رسوله خير البشر وخير الرسل، ويبين شوقي أنه يظل يحيي الليالي بالصلاة يبكي إشفاقا على أمته ويطلب لها المغرفة، ويسبح لله طوال الليالي وهو جالس أو متكئ، فلا سأم هناك و لا ملل، ثم يواصل شوقي الدعاء بالصلاة على آل الرسول الكريم فهم مكرمون عند الله منذ القدم و حتى ما إذا اسود وجه الدهر فهم ذو كرامة و عزة مهما اشتد عليهم كربهم و بلاؤهم.[2]

وكذلك يقول:

وأهد خير صلاة منك أربعة في الصحب صحبتهم مرعية الحرم

الراكبين إذا نادى النبي بهم ما هال من جلل و اشتد من عمم

[1] أحمد شوقي، الشوقيات: شعر المرحوم أحمد شوقي في السياسة و التاريخ و الاجتماع و الوصف والنسيب، المصدر السابق، ص 160.

[2] فتحي عثمان، شرح البردة للبوصيري ونهج البردة لشوقي، المرجع السابق، ص 144.

الصابرين و نفس الأرض واجفة الضاحكين إلى الأخطار و القمم

ليمضي شوقي في الدعاء بالصلاة على الخلفاء الراشدين الأربعة وهم: أبو بكر، و عمر، و عثمان و علي رضي الله عنهم أجمعين، و هم لهم الرحمة من الله، فهم أصحاب رسول الله المرعية صداقتهم و صحبتهم وهم الذين لبوا نداء الرسول صلى الله عليه وسلم في الحرب أو في السلم و يقدمون المشورة وهم الذين واجهوا معه الشدائد وظلوا صابرين كاظمين الغيض ويقول:

يا رب هبت شعوب من منيتها و استيقظت أمم من رقدة العدم

سعد ونحس وملك أنت مالكه تديل من نعم فيه و من نقم

رأى قضاؤك فينا رأي حكمته أكرم بوجهك من قاض و منتقم

ولعله هنا يتقدم كشاعر وكرجل مسلم تهمه مصلحة المسلمين بالدعاء إلى الله الذي لا إله إلا هو مالك الملك، يدبر الأمر في الكون ويسير أحوال الخير و الشر بين الممالك لا راد لقضائه مهما حم قضاؤه وإن كان قاسيا على مشاعرنا فهو رحيم بنا لا ندرك ببشريتنا عمق الحكمة الإلهية العميقة التي أرادها سبحانه و أخيرا يقول أمير الشعراء:

فالطف لأجل رسول العالمين بنا ولا تزد قومه خسفا ولا تسم

يا رب أحسنت بدء المسلمين به فتمم الفضل و امنح حسن مختتم [1]

ليختتم شوقي في قصيدته بدعاء فيه التسول و الرجاء، فيدعو الله اللطيف، ويرجوه أن يلطف بالمسلمين، و يتشفع عند الله لهم برسول الله حبيبه المصطفى صلى الله عليه

[1] أحمد شوقي، الشوقيات: شعر المرحوم أحمد شوقي في السياسة و التاريخ و الاجتماع و الوصف و النسيب، المصدر السابق، ص 160.

وسلم، و يكرر الدعاء ليؤكد أن الله قد أحسن إلى المسلمين فاختار من بينهم و بعث فيهم الرسول بهذه الرسالة ويطلب مطن الله أن يتمم هذه الرسالة و هذا الفضل و أن يمنح المسلمين حسن الخاتمة كما منحهم من قبل حسن البداية وليس لنا إلا أن نقول: "اللهم أحسن ختامنا كما أحسنت بدأنا يا أرحم الراحمين".[1]

[1] علي النجدي ناصف، الدين و الأخلاق في شعر شوقي، المرجع السابق، ص 299.

الفصل الثالث:

دراسة الأغراض والجانب الفني للقصيدة

أ. الأغراض الشعرية في القصيدة:

1. في الغزل:

كل القصائد العربية الكلاسيكية تنهج بالشكل منهجا واحدا، هذا المنهج هو أن تبدأ القصيدة بغرض ثابت يلتزم به الشعراء مهما يكن الغرض الرئيسي للقصيدة مدحا أو هجاء أو نسيبا أو فخرا أو رثاء وغيرها من هذه الأغراض، وهذا الغرض الذي يبدأون به قصائدهم إما أن يكون غزلا في محبوب، أو بكاء على طلل أحبة قد تركوه، وهذا يدل على أن بناء القصيدة العربية الكلاسيكية تستلزم في البداية استهلالا يشد قارئها أو سامعها إلى موضوعها، وليس هناك أفضل من الغزل أو البكاء على الأطلال موضوعا يشد القارئ أو السامع العربي.

و من هنا جاءت ضرورة البدء بالغزل عند أحمد شوقي في قصيدته التي بين أيدينا، و لقد نهج شوقي منهجه بين الحسية و العذرية، لا يظهر من هي المحبوبة، و لكنه تعرضا يسيرا لشكلها "فيستعير لفتاته لفظ ريم و يخففه بقلب همزته باء، لينقلنا إلى لصحراء إلى جزيرة العرب، ومضارب الخيام ومسارح الآرام، إلى الماضي الجميل الدافئ، ففتاته ظبي، سارح، غافل، في منبسط من الأرض المطمئنة، بين أشجار البان وبين الجبل، وفي هذا الظبي من صفات البان أنه مشوق، ومن صفات الجبل ثقة و عناد، و من الأرض المنبسطة سهولة ومرونة فهي جزء من المنظر الجميل، و المنظر الجميل يتخذها بؤرة له ومركزا يدور حوله، هي فتاة رائعة الجمال، و لا بد أن تكون رائعة الجمال و كأن الحب وقف على الجميلات، فهو ظبي ناعس الطرف، مستقيم القد مضيء كالبدر، يمشي في دل، و يختضب بالعنم، إن أشار أسر، و إن تلفت قتل".[1]

[1] منير سلطان، البديع في شعر شوقي، الناشر، منشأة المعارف بالإسكندرية، 1986، ص 116-117.

وشوقي ماهر في الحديث عن الحب، متمكن من استخدام الألفاظ، ورسم الصور لكنه غير صادق، لا تحس معه بحرارة الحب، بقدر ما تحس بحلاوة الكلمات، و جمال العرض، ورشاقة الحديث، حديث كله عفة وسهر و ألم وشوق و أمل.

هو هنا لا يرسم لك صورة محددة أو تجربة محددة كانت بينه وبين فتاة ما، لكنه يجعلك تعيش جو الحب و أحلامه بدون أن تحدد ملامح شوقي، أو ملامح سيدة الحسن هذه، إنما ترى محبا من المحبين، أحب محبوبة من المحبوبات.[1]

و بالقراءة المتأنية للغرض من الغزل نجد أن شوقي لم يسرف في التعرض للجوانب الحسية فلم يذكر الأرداف أو الخصور أو غيرها من المفاتن الجسدية للأنثى، وكذلك عندما تعرض للجوانب النفسية و الوجدانية كان بلا استغراق في الوجد، و قد اتخذ شوقي أسلوبا يبين من خلاله تكامل حبه، فهو لا يحب مجهولا، و لا يحب محسوسا و إنما يحب امرأة لا يبغي أن يعرض بها، فلم يذكر اسمها، و هولا يحب وهما أو سرابا، وإنما يضع لنا صفات خاصة بها و استعارات عن مكانتها و مكانة عائلتها، فقد أحب المرأة جسدا و روحا، ويتخذ شوقي منهجا أقرب ما يكون إلى المنهج الإسلامي الكامل الذي لا يعتمد على الماديات الصرفة أو على الروحانيات الخالصة، فهو يحدثنا عن هذه المحبوبة حديث الإنسان المحب تجاه الأنثى المحترمة التي يعالج منها الروح و الجسد كإنسانة.

2. في الوصف و الحكمة:

أحمد شوقي يكتب كابن لعصره أيضا، وفي عصره ظهرت الفلسفات الأوروبية، و امتص أحمد شوقي رضاب علم السلوك و الأخلاق وخلطه بالفلسفة الإسلامية، ويخرج

[1] منير سلطان، البديع في شعر شوقي، المرجع السابق، ص 116.

البيت المحوري للحكمة في قصيدته فيقول: "صلاح أمرك للأخلاق مرجعه، و النفس من شرها في مرتع وخم".

ففلسفة الشر عند شوقي هي النفس الأمارة بالسوء، فإن تستقم النفس تستقم الحياة و تعد شيئا جميلا، أما إذا لم تستقم فالشر كل الشر للناس و الحياة و للمسلمين، وشوقي يأخذ الأمر مأخذا أخلاقيا يركز فيه تربويا على تربية النفس حتى تصل إلى درجة التقوى، و لا يأخذ مذهبا جسديا في مسألة اللذة إنما يهتم أساسا بموقف تربوي أخلاقي و لا يهتم بسوى ذلك من الاتجاهات، فالنفس عند شوقي خيرة طالما هي خيرة و النفس شريرة ما لم تقم من الصغر و تمنع من الاتجاه إلى الشر.

3. في مدح السول صلى الله عليه وسلم و المسلمين:

كان المدح هو أهم غرض من أغراض القصيدة العربية و يقابله الهجاء كغرض مضاد فإن تعرض الشاعر العربي لشخص، فإما بالمدح و إما بالهجاء ولا شيء بينهما، و من هنا نستطيع أن نؤكد أن مدح الأشخاص أو هجاؤهم غرض أصيل من أغراض الشعر العربي من قبل ظهور الإسلام و لهذا يتخذ شوقي طريقا في الوصول إلى المدح لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن طريق التضرع و الاستغفار و محاولة التطهير متوسلا بدموعه وعبراته ليقبل منه هذا المدح، فيبدأ بهذا البيت: إن جل ذنبي عن الغفران لي أمل في الله...

"وهو يبدأ بهذا ويصل فيه إلى إقصى درجات التذلل ويعتبر أن أقصى درجات التذلل للرسول صلى الله عليه وسلم ليست إلا شيئا يسيرا يقدمه كل ذي تقوى، و بعد ذلك يصل في مدح الرسول الكريم بأنه: صفوة الباري، و صاحب الحوض، و اختيار شوقي للألفاظ

في هذا الجزء يؤكد أنه وصل إلى درجة راقية جدا في اختيار أقل الألفاظ غرابة و أبسط الألفاظ معنى، و ذلك ليصل المعنى لكل سامع".[1]

4. مولد الرسول صلى الله عليه وسلم ووصف المسلمين من حوله:

كتب أحمد شوقي ثمانية أبيات في وصف مولد الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يمزج الواقع بالخيال فقط و إنما مزج الواقع بالخيال و بالعاطفة المشبوبة للمسلم المحب لرسول الله صلى الله علي و سلم إذ يحكي عن البشائر التي بشرت في الشرق و الغرب بالنور الذي شق وسط الجزيرة العربية، هذا النور الذي هز أنفس الطاغين وقلوبهم، و بدد أحلام البغاة و تصدعت شرفات الإيوان من صدمة الحق، وقد هاجت أشواق شوقي وفاض معين الشعر بأبيات مملوءة بالعاطفة نسجها مشبعا بالحب و الوجد و العشق لذكرى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ولذكرى مولده.

5. معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم:

بدأ شوقي مدحه للرسول عليه الصلاة و السلام و إظهار معجزاته ابتداء بقول جبريل عليه السلام للرسول الكريم عليه الصلاة و السلام في غار حراء عندما بدأ إبلاغه الوحي "اقرأ" وكيف يقرأ من لم يتعلم كيف يقرأ، و هذا مستحيل، بل و معجزة، فهذه هي أول المعجزات للنبي الكريم، ثم ينتقل إلى المعجزة الحسية الأولى في الإسلام و هي نزول القرآن الكريم ويصفها بأنها جاءت للناس بعد طول انتظار، و أن الله حافظ له لأنه هو الدستور الذي لا يحب أن يبدله الخلق.

فالقرآن يحمي القلوب، و يحي ميت الهمم، و ينتقل شوقي متتبعا مراحل السيرة النبوية بماله من علم بكتب السيرة الذاتية و روايات الصحابة و التابعين، ثم يتحدث عن وصول الرسول المعجز و المعجزة و كيف استقبله هؤلاء الأنبياء و هؤلاء الملائكة، ثم يعرج بنا

[1] حسن حسين: ثلاثية البردة –بردة الرسول صلى الله عليه وسلم، المرجع السابق، ص 149.

شوقي إلى السماء حيث عرج جبريل عليه السلام بالرسول صلى الله عليه وسلم و ها هو شوقي ينتقل من معجزة الإسراء و المعراج إلى معجزة أخرى و هي كيف أحاط الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو الإنسي الذي لم يتعلم بكل هذه المنن التي قلده بها الله بلا عاد ولا حصر، ثم ينتقل شوقي إلى معجزة أخرى أكثر واقعية و هي معجزة الهجرة و كيف خرج بصحبة أبو بكر الصديق، ويطارده سادة قريش، و بأمر الله صموا عن سمع تسبيح الرسول صلى الله عليه وسلم وصديقه رضي الله عنه، و يأمر الله العنكبوت و الحمام بالتمويه على الكفار بوجودهما بباب الغار.[1]

6. الجهاد في سبيل الله:

لقد اتخذ شوقي منهجا دراميا بالنسبة لهذا الجانب فهو يقيم حوارا بين أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم و الإسلام، وبينه كشاعر فيتصور أنهم يقرعون الرسول صلى الله عليه وسلم فيقولون له: كيف تغزو و أنت كما تقول رسول من السماء؟

ونحن نعرف أن الرسول يجيء إلى الأرض لنشر المبادئ لا لسفك الدم، فيرد عليهم الشاعر المسلم أحمد شوقي قائلا على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم:

جهل وتضليل أحلام وسفسطة فتحت بالسيف بعهد الفتح بالقلم[2]

ثم يستطرد محايدا و يصف كيف أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعمل السيف إلا في الجهلاء و العوام فالسيف هو المنقذ و يؤكد شوقي أن الشر لا يقابل إلا بالشر ويؤكد في مقارنة بين ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم وبين ما كان من سيدنا عيسى مع اليهود و الرومان ومحاولة صلبه، و ينتقل شوقي إلى المعاصرة لينبهنا إلى أشياع المسيحية و أتباعها، فهو يحث العاصرين له من المسلمين على الجهاد.

[1] حسن حسين، ثلاثية بردة الرسول صلى الله عليه وسلم، المرجع السابق، ص 156.

[2] أحمد شوقي، ديوان الشوقيات، شعر المرحوم أحمد شوقي في السياسة و الاجتماع و التاريخ و الوصف و النسيب، المصدر السابق، ص 152.

7. الشريعة الإسلامية:

حدثنا شوقي في ثلاثة عشر بيتا حول الشريعة الإسلامية فهو يفرق بين الشريعة و القرآن فالشريعة عنده ليست القرآن فقط، و إنما هي القرآن و كل فعل أو قول قام به الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو يقرر أن جوهر العقيدة الإسلامية ليس إلا "لا إله إلا الله" وهذا التوحيد هو دلالة العقل البشري دلالة تؤكد الفطرة السليمة لهذا العقل، و ينتقل شوقي إلى أن الشريعة الإسلامية قد رفعت من قيمة الدولة الإسلامية عندما استطاع العرب أن يسيطروا على الفرس و الروح بتمسكهم بهذه الشريعة و هذا التوحيد، و ذكر شوقي أن العلم و أصول التمدن هما الأسس التي سار المسلمين بعد ذلك ثم التقشف والهيمنة على النفس للحد من انصياعها لأهوائها، ثم ينهي الأبيات ببيتين من أبيات الحكمة يصف فيهما عدل المسلمين الذي لا يقارنون فيه بمن سبقهم، فقد نالوا به السعادة في الدنيا و الآخرة.[1]

ونلاحظ أن شوقي لم يكن في مستواه الفني في هذا الغرض فهو لم يتعمق في تناوله معاني الشريعة و صفاته ولكنه ركز على التوحيد بالله كجوهر رئيسي لهذه الشريعة.

8. المقارنة بين الحضارات:

من خلال تلك الأبيات و عددها أحد عشر بيتا يعلي شوقي من قيمة و أصالة الحضارة الإسلامية، ويسمو بها على كل الحضارات السابقة فهي حضارة دنيا و دين وروح و مادة، قامت على أساس من سنن الله سبحانه و تعالى، فأما الحضارات الأخرى فقد قامت على بعد واحد اهتم بالجانب المادي لذلك انتهت ولم تبق سوى هياكلها، فأما الحضارة الإسلامية فهي حضارة باقية لأنها تقوم على أساس قوي هو شريعة الله، و تتضح من المقارنة التي عقدها شوقي في خلال هذه الأبيات ثقافته الإنسانية و إلمامه

[1] حسن حسين، ثلاثية البردة، بردة الرسول صلى الله عليه وسلم، المرجع السابق، ص 160.

بالحضارات القديمة و توغله في أبعادها ورؤيته الخاصة لها، و دفاعه عن الحضارة التي ينتمي إليه روحا ووجدانا وعقلا وهي الحضارة الإسلامية العظيمة التي جمعت بين المادة و الروح، وكانت موجهة للإنسانية جمعاء، وليست كتلك الحضارات التي كانت مسخرة لخدمة وتمجيد الملوك و القياصرة فحسب.

9. الخلفاء الراشدون:

"وشوقي حريص على تنوير الشباب بأمجاده الدينية، وشخصياته الإسلامية و القدرة الحسنة المتمثلة في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يستعيد أمجاد أسلافه".[1]

فقد أفاض شوقي في مدح الخلفاء الراشدين وهذا اهتمام بشأنهم و تيمنا بذكرهم وذلك ابتداء من البيت التالي:

خلائف الله جلوا عن موازنة فلا تقيسن أملاك الورى بهم

وفي الأبيات التالية لهذا البيت شدد شوقي فضائل كل خليفة من هؤلاء الخلفاء وما تميز به من صفات وخلائق صارت دلائل على كل واحد منهم، "و اعتمد شوقي على الصفات المميزة لكل منهم في ذره لهم مبتدئا بالفاروق عمر بن الخطاب العادل، ثم ينتقل إلى عمر بن عبد العزيز و خشوعه وتقواه و زهده، ثم الإمام على بن أبي طالب باب مدينة العلم، ثم يعرج شوقي على عثمان بن عفان ومآثره في حفظ القرآن و جمع آياته و استشهاده وهو منكب على كتاب الله، ثم يتحدث شوقي عن أبي بكر أول الخلفاء وبلائه الحسن في سبيل الإسلام ويتمثل ذلك في حرب الردة و انتصاره فيها بعد أن كاد الإسلام يضيع على أيدي فئة باغية".[2]

[1] منير سلطان، البديع في شعر شوقي، المرجع السابق، ص 114.

[2] حسن حسين، ثلاثية البردة، بردة الرسول صلى الله عليه وسلم، ص 168.

10. المناجاة وعرض الحاجات:

"... ثم يستغرق في ترتيل الدعوات الصالحات على النبي الكريم و آله وصحبه البررة، في تسعة أبيات ثم يختم القصيدة بالدعاء لشعوب الإسلام في عصره الحديث أن ينالها كرم الله سبحانه و تعالى و لطفه وفضله، ... و لأن الهدف صار المعنى، و أداء الرسالة حيال الشباب و الأمة العربية، فلا بأس من أن يدعو الله للأمة العربية أن يكرمها بالنعم، و يجنبها النقم...".[1]

"... فهو يناجي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتوسل به و يتضرع إليه و ألقى حاجته ورجاءه بين يديه... ففي الجزء الأخير يطلب شوقي بعد أن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم و على أصحابه و آل بيته الكرام يطلب من الله سبحانه و تعالى مستعينا بالنبي صلى الله عليه وسلم الهداية و اللطف بالمسلمين قاطبة و ذلك ابتداء من قوله:..."[2]

يا رب هبت شعوب من منيتها و استيقظت أمم من رقدة العدم

إلى قوله:

يا رب أحسنت بدء المسلمين به فتمم الفضل و امنح حسن مختتم

ومن خلال فهمنا لهذه الأبيات التي يختم بها أحمد شوقي قصيدته نجد لعله يقصد أن يضع الصورة المثلى لما يجب أن يكون عليه المسلم، الصورة التي لم تحققت في المسلمين الحاليين لعادوا إلى الوضع الذي كانوا عليه في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الأبرار، فشوقي هنا يدعو الله سبحانه و تعالى و يسأله اللطف بالمسلمين

[1] منير سلطان، البديع في شعر شوقي، المرجع السابق، ص 113.

[2] حسن حسين، ثلاثية البردة، بردة الرسول صلى الله عليه وسلم، المرجع السابق، ص 168.

والإحسان إليهم، و ينبه في نفس الوقت المسلمين إلى أن الله لن يغير حالهم إلا إذا غيروا ما بأنفسهم.

بعد تطرقنا لدراسة الأغراض الشعرية التي تضمنتها قصيدة نهج البردة، ها نحن ندخل جانبا آخر من جوانب الدراسة لهذه القصيدة وهو:

ب. الجانب الفني للقصيدة:

1. الصورة الشعرية:

من النقاد من يحسبون أن قيمة الإبداع الشعري الأولى تقتصر على طبيعة الصورة في نتائج الشاعر لأنها هي التي تعين الحد البعيد أو القريب الذي أدركه الشاعر و أوغل فيه عبر ظلمات النفس، وهي مادة الشعر، أو تقع من دونه في حيز الفكرة وهي مادة النثر فحيثما تصل الصورة من الغيب النفسي يصل الإبداع في شعر الشاعر، ذلك أن الصورة هي المادة الفعلية وشبه الوحيدة و القائمة بذاتها نسبيا لتجسيد غوامض النفس و الترجحات شبه المستحيلة التي تطرأ عليها، و التي لا يقبل للإنسان بها في حدود النثر و الفهم و الإفهام و شتى الأساليب البيانية الأخرى، فالصورة هي التعبير الأفضل للشاعر و الفكرة هي التعبير الأرذل و الساقط لأنها ابنة الوعي وهي التي تقبل على حثالة التجربة ونفايتها ولا تحمل شيئا من حقيقتها الفعلية إلا أن الصورة الفنية ذاتها هي صورة متعددة من مستوى الإيغال و الرؤيا و النفاذ في الغيب النفسي وغيب الأشياء، و من طبيعتها الصوفية و السرية العميقة و الحميمة فمن الصور ما يرسف في ما يشبه حدود الأفكار النثرية من وضوحه ودنو متناوله، و منها ما يسمو عليه قليلا أو كثيرا، و منها ما يحلق فوقه ويرتفع على أديم الحس و المنطق و المادة يقبض على أنفاس التجربة الأولى حين تكون الأحوال النفسية بعد طيفا متوهما وشفافا ولا قوام حسيا له.

إنها الصورة الإشراقية و الرؤيوية، وهي تختص بالملهمين و النخبة من الشعراء ممن أطلوا على الصقع الآخر من الأشياء و عانقوا المنحدر الثاني من واقع الوجود.[1]

فالصورة الشعرية إذن هي: التعبير الذي ينقل شعور الشاعر أو أفكاره معتمدا على التجسيد لا على التصريح و التجريد، فهي إذن تصوير لعاطفة الشاعر وتجربته و تصوير لفكرته التي انفعل بها.

وهي لهذا وسيلة من وسائله في استعمال اللغة على الوجه الذي يكفل نقل مشاعره و أفكاره فيؤثر في نفوس قرائه.

وهذه الصورة الشعرية مادتها الألفاظ الحسية التي تجسد لتمثل في الأدب الألوان و الظلال و الخطوط في الصورة المرسومة، و قد تتحقق الصورة الشعرية في تركيب كامل و قد تتحقق في لفظ مفرد.

و قد يتبادر في الذهن أن الصورة الشعرية تعبير مجازي لأنها كما تجيء في تعبير مجازي تجيء في تعبير حقيقي، و إذا نظرنا إلى قصيدة نهج البردة نجد هذا التصور المعتمد على التعبير بالحقيقة.[2]

و لنتأمل هذه الأبيات من "نهج البردة" التي يقول فيها الشاعر:

جاء النبيون بالآيات فانصرمت وجئتنا لحكيم غير منصرم

آياته كلما طال المدى جدد يزينهن جلال العتق و القدم

يكاد في لفظه منه مشرقة يوصيك بالحق و التقوى و بالرحم

[1] إيليا الحاوي، أحمد شوقي، أمير الشعراء، المرجع السابق، ص 47.

[2] أحمد محمد الحوفي، الاتجاه الروحي في شعر شوقي، مكتبة النهضة المصرية، د ت، ص 82.

فإنه يصور القرآن الكريم معجزة خالدة على الدهر، متجددة الإعجاز، هادية إلى أنواع الخير، وليس في الأبيات شيء من المجاز.[1]

وفي هذا البيت صورة أخرى للمجتمع العربي زمن الجاهلية أي قبل مجيء النبي صلى الله عليه وسلم.

أتيت و الناس فوضى لا تمر بهم إلا على صنم قد هام في صنم[2]

فهو يصور حالة المجتمع العربي وما كان فيه من فوضى و جهل قبل مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم وهو تعبير حقيقي ليس فيه مجاز، وقد جاء تعبيره في هذه القصيدة صريحا واضحا لأنه سرد لهذه الحقائق التي وقعت فعلا و أراد إثباتها بأسلوب شيق يجذب المستمع ويجذب باله، كما يعتبر الخيال جزءا لا يتجزأ من الصورة الشعرية و المتمعن لقصيدة "نهج البردة" يجد فيها نوعا من "خيالا متألقا إذ كان شوقي لا يغض منه، فذلك شأن شعراء العرب البارعين جميعا و مثل شاعرنا في هذا العمل مثل من ورث ثروة و احتفظ بها، بل نماها و أضاف إليها تحليقات في سماواته".[3]

ولنتأمل هذا البيت الذي يقول فيه شوقي:

فضي بتقواك فاها كلما ضحكت كما يفض أذى الرقشاء بالثرم[4]

ففي هاذ البيت صورة رائعة "شبه فيها الشاعر الدنيا بالحية الرقشاء، و الأرقش هو المنقط بالسواد و البياض ويقال ما كانت هذه صفتها فهي أشد الحيات أذى وفتكا، فالدنيا هي هذه الحية البالغة الأذى أو قل شبيهة بها، و أذاها في أنيابها لا يزول عنها إلا

[1] أحمد محمد الحوفي، الاتجاه الروحي في شعر شوقي، المرجع السابق، ص 83.

[2] أحد شوقي، ديوان الشوقيات، شعر المرحوم أحمد شوقي في السياسة و الاجتماع و التاريخ و الوصف و النسيب، المصدر السابق، ص 154.

[3] شوقي ضيف، شوقي شاعر العصر الحديث، دار المعارف مصر، ط 8، 1953، ص 36.

[4] أحد شوقي، ديوان الشوقيات، شعر المرحوم أحمد شوقي في السياسة و الاجتماع و التاريخ و الوصف و النسيب، المصدر السابق، ص 151.

بتثريمها، و البلاغيون يسمون هذا تشبيه أمر معنوي بآخر حسي فيعتبرون هذا غاية في الجمال لأنه تشبيه غير المحسوس أو ما يدركه الحس بأمر يدركه الحس فيكون أشد بيانا لأن شهادة الحس أبين و أوضح".[1]

وما نستطيع قوله هو أن الشاعر في هذه القصيدة لا يبدو واضحا بخياله وشاعريته لأنه في موقف تقليد، لا و نقصد بالتقليد هنا ذلك التقليد الحرفي أو المحاكاة الجوفة التي لا طائل منها، فالشاعر هنا لا يسبح بخياله كثيرا ولا يحلق إلى بعيد على الرغم من أنه أضفى على هذه القصيدة روحا جديدة.

واقتباسه هذه "الصورة القديمة في حقيقتها لا يجعلنا نعيب عليه ذلك إلا إذا نقل طبق الأصل أوشوه فيها تشويها يؤذي أذواقنا و لم يكن شوقي من هؤلاء و لا من أولئك بل كان دائما يشيف طريقته في تلوين الصورة و تظليلها بحيث تتضح له أوضاعه في صوره و تحويراته في رسومه فتبدو كأنما تغيرت وجوهها واختلفت هيئاتها".

و الدليل على ما قلناه نجد بعد تمعننا لهذا البيت من قصيدة "نهج البردة" أن الجيد فيه أكثر و أجود مما يقابله في كلام البوصيري فهو يقول:

لا تحفلي بجناها أو جنايتها الموت بالزهر مثل الموت بالفحم

فإن في هذا لأشرف معنى و أسمى خيال من قول البوصيري:

وأخشى الدسائس من جوع و شبع فرب مخمصة شر من التخم[2]

"ومن هنا نجد أن شوقي كان يعرف كيف يجسم الصورة و كيف يركبها و كيف يحشد جزئياتها وعناصرها، فإذا هي تتحول إلى لوحة كبيرة كهذه اللوحات التي نراها في معارض الرسامين فلا نستطيع أن نخفي إعجابنا بها ولا سرورنا أثناء رؤيتها".[1]

[1] محمد حلمي مرزوق، شوقي وقضايا العصر و الحضارة، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت، د ط، 1979، ص 211.
[2] شوقي ضيف، شوقي شاعر العصر الحديث، المرجع السابق، ص 47.

و الصورة الشعرية في هذه القصيدة أو لدى الشاعر الكلاسيكي الذي لا يتسم برحابة الخيال و بعد الأفق كما "عند الرومانسيين الذين أطلقوا لخيالاتهم العنان وتجاوزوا الصور القديمة و حلقوا بخيالاتهم في آفاق رحبة حرة فأبدعوا صورا أدبية نضيرة مبتكرة، وشحنوها بعواطف إنسانية حرة تفيض حماسة ورقة".[2]

"و الحقيقة أن الصورة الشعرية لا تكون ناجحة إلا بمقدار نجاح الشاعر في تعامل مع اللغة التي تدخل ضمن الموروث الفني للشاعر".[3]

"وقد كان شوقي واقفا على أسرار العربية، عارفا بفرائدها الفصحى، مميزا بين معسولها و مرذولها... آخى في شعره بين فصاحة اللفظ و بلاغة التركيب و متانة الأسلوب في بيان واضح ناصح.

ولولا متانة لغة شوقي لما عد شاعرا أصلا، لأن نقاوة اللغة هي الشرط الأول للشاعر، و الكاتب، و المعاني وحدها لا تكفي، و لا ينهض بركاكة اللفظ على المعنى، و هذا أمر اتفق عليه العرب و العجم، و قد قال عنه: "محمد حسين هيكل" أنه شاعر اللغة العربية السليمة و أضاف أن لغته تعتمد على بعض القديم من الألفاظ التي نسيها الناس وصاروا لا يحبونها لأنهم لا يعرفونها، و لعل سر ذلك عند شوقي.

أن البعث وسيلة من وسائل التجديد بل لقد تكون أحد وسائل التجديد نتيجة ما وجد من أرباب اللغة من يفيضون على الألفاظ القديمة روحا، تكفل حياتها.[4]

ومثلا من الألفاظ التي وردت في "نهج البردة" "الرقشاء، غراء، سلسلا، الشيم، العلقم، الوصم..."، فكلها كما نرى ألفاظ قديمة لم تكن متداولة في عصر الشاعر.

---

[1] المرجع نفسه، ص 47.

[2] نسيب النشاوي، المدارس الأدبية في الشعر المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص 164.

[3] مصطفى الغماري، الصورة الشعرية في شعر شوقي، رسالة حصول على درجة الماجستير سنة 1983-1984، تحت إشراف الأستاذ: حامد حنفي داود، ص 164.

[4] نسيب نشاوي، المدارس الأدبية في الشعر المعاصر، المرجع السابق، ص 72-73.

"كما نلاحظ تفنن شوقي في استخدام الألفاظ وربط بعضها ببعض على نحو يؤلف ألوانا من الإيقاع و الجرس و يساعد على ذلك حس دقيق بالتشابه و التقابل و التكامل بين الحروف و الكلمات و هذه سمة كبرى من سمات فن شوقي، مما يغني جانب الصورة في شعره".[1]

كما وردت ألفاظه في هذه القصيدة سهلة واضحة لا إيحاء فيها ولا رمز وهي في متناول الفهم باستثناء بعض الألفاظ التي تحتاج إلى القاموس للاستعانة به على فهم المعنى الإجمالي للبيت، و قد وفق شوقي في أخيار الألفاظ الملائمة لأداء غرضه ومقصده، و كانت ألفاظه كلها في مكانها المناسب فمثلا قوله:

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه فقوم النفس بالأخلاق تستقم

فكلمة الأخلاف في البيت أدت غرضها المطلوب عندما جعلها ذات هدفين الأول هو توجيه النصح لنفسه بالتزامه الأخلاق و المثل و المبادئ و القيم، وقد صدق في هذا إذ النصح لا يقبل إلا إذا بدأ صاحبه به، و لذا قال الشاعر:

مواعظ الوعظ لن تقبلا ما لم تكن بالنفس أولا

وهو بذلك يهيئ للسامع و يمهد لنفسه أخذ العبرة و الاقتداء بالغير و السير على النهج الذي سار عليه الناصح، و الاحتذاء به في الالتزام النصيحة و هذا هو الهدف المنشود إذ إن الشاعر لو لم يلتزم بالنصيبة في نفسه ولم يعتبر هو أولا فلا محالة سترد نصيحته.

و كذلك كل الألفاظ الواردة في هذا البيت في منتهى الروعة و الجمال إذ يقول شوقي:

آياته كلما طال المدى جدد يزينهن جلال العتق و القدم

[1] مصطفى الغماري، الصورة الشعرية في شعر شوقي، درجة ماجستير، المرجع السابق، ص 208.

فهذا الطباق في البيت بين جدد و القدم جعلت المعن واضحا مستساغا وهو أروع من قول البوصيري

فما تعد ولا تحصى عجائبها ولا تسام على الإكثار بالسأم

ومع هذا يؤاخذ شوقي على هذا البيت الذي قال فيه:

حليت من عطل جيد البيان به في كل منتثر في حسن منتظم

ففيه ركاكة وهو غير جيد المعنى وهو لا يزيد عن قول بعض الناس "أما القرآن فهو زينة البيان و قلائد العقيان".[1]

ومع هذا فقد وف الشاعر ووصل النجاح بقصيدته التي قلد فيها أو عارض بها البوصيري لرقة أسلوبه، "و استطاع أن يكون لنفسه أسلوبا لا يتحرر من القديم و لكن في الوقت نفسه يعبر عن الشاعر و عصره، وكل ما يريد من معان و أفكار وهو أسلوب يقوم على الجزالة و الرصانة و المتانة و القوة بحيث تؤلف الكلمات ما يشبه البناء الضخم الشاهق".[2]

وبهذا يكون لشوقي أسلوبه الذ يعرف به و تميز به عن غيره من الشعراء حتى و إن قلد فإن هذا لا يعني أنه لا قدرة له على قول الشعر، و لكنه أراد أن يثبت أنه شاعر زمانه، و شاعر تحدي، أثبت أن له شاعرية تضاهي غيره من الشعراء الذين سبقوه بل تفوقهم أيضا.

و ننتقل إلى عنصر هام – أو كما نراه لا يقل أهمية عن العناصر الأخرى– في بناء الصورة الشعرية وهو:

[1] زكي مبارك، أحمد شوقي، المرجع السابق، ص 205.

[2] شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر، دار المعارف، مصر الطبعة الرابعة، 1971، ص 114.

2. العاطفة:

إن الحديث في القصيدة الكلاسيكية الجديدة كما هو الحال عند شوقي هو المحرك لأحاسيس الشاعر و انفعالاته فهي لا تقوم على شيء من المعاناة و لا تأخذ وقودها من الانفعال العضوي السريع بالحدث بل يزيد فيها الشاعر إلى زاده من المخزون الثقافي و موروثه الشعري على اختلاف العصور ليتزود منها كلما تقدم في القصيدة، ذلك لأن عواطف الشاعر الكلاسيكي ليست سائبة كما هو الحال عند شعراء الوجدان، و أن يقظة الشاعر الكلاسيكي و السيطرة على عاطفته و إخضاعها لعامل العقل تجعلها لا تتفجر لتعبر عن نفسها و أحاسيسها على أية صورة جاءت، و كيفما اتفق بقدر ما يرتد إلى المخزون الثقافي و الفني لدى الشاعر ليسيل هذا المخزون الكامن شعرا لا يحمل من عوطف الشاعر الذاتية المتميزة المطبوعة ببصماته ما يميز انفعاله عن هذه الحقيقة القديمة و معايشته للتجربة الخاصة و لعل هذا هو الفارق الجوهري بين الشاعر التقليدي قبيل شوقي وبين الأصولية الجديدة التي كان شوقي رائدها و حامل لوائها، فالشاعر قبل شوقي ينقل التجربة القديمة و الحدث الشعري القديم نقلا فجا لا أثر فيه و لا يد فيه للإبداع، مع قصور واضح في الأداة التعبيرية إلى حد الإسعاف و الركاكة، أما الشاعر الأصولي الجديد فإن الحقيقة الشعرية لديه لا تستمر حقيقة إلا إذا كان قد عاشها مرة ثانية في ظروف تختلف عن تلك التي نبتت فيها أصلا، أما إذا اكتفى بترديد القديم دون أن يخلقه من جديد فحينئذ يحل القول محل الإبداع و يفقد القائل موقفه المتجدد أبدا في الحياة.[1]

و من هنا فإن شوقي كان شعره يصدر عن تجربة و عن عاطفة، ولا نظن أن شوقيا كان في شعره، ينكر نفسه كما يرى البعض و يتهمونه بأنه ليس من الشعراء الذاتيين الذين تقرأ عندهم حدة العواطف، و من بين هؤلاء المغرضين "العقاد" الذي يقول: "وفي

[1] مصطفى الغماري، الصورة الشعرية في شعر شوقي، درجة ماجستير، المرجع السابق، ص 128.

شوقي ارتفع شعر الصنعة إلى ذروته العليا و هبط شعر الشخصية إلى حيث لا نتبين لمحة م الملامح ولا قسمة من القسمات التي يتميز بها إنسان بين سائر الناس، و شعر الصنعة ليس على نهج واحد كله فمنه ما هو زيف فارغ لا يمت إلى الطبيعة بواشجة ولا صلة وليس فيه إلا لفظ ملفق وتقليد براء من الحسن و الذوق و البراعة، و منه ما هو قريب إلى الطبيعة، و لكنه منقول من القسط الشائع بين الناس فليس فيه دليل على شخصية القائل و لا على طبعه لنه أشبه شيء بالوجوه المستعارة التي فيها كل ما في وجوه الناس وليس فيها وجه إنسان، و من هذه الصنعة كانت صنعة شوقي في جميع شعره فلو قرأته كله وحاولت أن تستخرج من ثناياه إنسانا اسمه شوقي يخالف الأناسي الآخرين من أبناء طبقته وجيله لأعياك العثور عليه، و لكنهك قد تجد هنالك خلقا تسميه ما شئت من الأسماء وشوقي اسم واحد من سائر هذه الأسماء، وليس هذا بشعر النفس الممتازة ولا بشعر النفس الخاصة إن أردنا أن نضيف معنى الامتياز وليس هو من أجل ذلك صرب من المصنوعات غلا أو رخص على هذا التسويم".[1]

والحق يقال أن شوقي لم يعن في شعره بتصوير نفسه، وليس معنى ذلك أن شعره خال من الأحاسيس و العواطف الذاتية، وإنما معناه أنها لا تتقد فيه.

أما بعد ذلك ففي شعره عاطفة فكيف يمسك بقلمه ويخطط بيتا من شعره إن لم يكن متأثرا بعاطفة خاصة و هل نستطيع أن نقرأ شعرا لشاعر دون أن يكون مصبوغا من عاطفته كما ينصب الماء من نبع رقراق، إذ شعره يتحول إلى ما يشبه السرد، و يصبح شيئا جافا خاليا من كل وميض وبريق للفن و كأنه الصحراء الهامدة".[2]

وردا على ما قال العقاد فقد جاء الموقف الآتي:

[1] عباس محمود العقاد، شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، 1965، ص 156.

[2] شوقي ضيف، شوقي شاعر العصر الحديث، المرجع السابق، ص 51.

"وأنا بدوري أقف موقفا مضادا" للعقاد "الذي جرد الشاعر حتى من الشاعرية في قوله "ليس بشعر النفس الممتاز" فهذا القول لم يكن عادلا و لا منصفا في حق الرجل و لا يخول لنا البتة أن ننكر شاعرية هذا الشاعر وفضله في خدمة الشعر العربي الحديث".[1]

و لنتأمل هذه الأبيات لنرى مدى صدق الشاعر في أقواله، ومدى انسياب ألفاظه عن عاطفة متأججة تمكن منها الدين و استقر فيها يقظة الضمير فأثرت وبلغت مداها ولا أحد ينكر ذلك.

إن جل ذنبي عن الغفران لي أمل في الله يجعلني في خير معتصم

ألقي رجائي إذا عز المجير على مفرج الكرب في الدارين و الغمم

إذا خفضت جناح الذل أسأله عز الشفاعة لم أسأل سوى أمم

ولا يشعر بلهيب هذه العاطفة إلا من عرف الله حقا و خاف من لقائه فصور معاناة نفسه ومخاوفها حتى أثر في غيره تأثيرا بلغ حد البكاء، فالشعر في نظرنا هو ما عبر عن الأمة ومبادئها و قيمها وقوم اعوجاجها وذكرها بماضيها و أمجادها ليشحذ هممها إلى ما فيه الخير و الصلاح بعد أن بلغت ما بلغت من الفساد و الانحراف، وليس ذلك الشعر الذي يصور الوجدان والمعاناة الخاصة للشاعر سواء كانت تجاه امرأة أو اتجاه المجتمع لأن هذا في رأينا شعر خاص لا يغني و لا يسمن من جوع.

و من عناصر بناء الصورة الشعرية أيضا في هذه القصيدة.

عنصر العقلانية: ونعني بها طغيان جانب التفكير على التصوير و الشعور، و لا ننفي بذلك أن يتجرد الشاعر ومن جانب التفكير وأن يطلق العنان لشعوره فحسب، كما

[1] بوجمعة بوبعير، مقارنة بين مدرسة المهجر الشمالي و جماعة أبولو، رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير من جامعة دمشق، سنة 1981-1982، بإشراف الأستاذ عدنان يوسف سكيك، ص 351.

نجد ذلك عند شعراء الوجدان الذين هم في كل واد بيكون، وإنما نعني أن شوقي يهرب إلى التجرد عندما يعز عليه التصوير، و يلجأ إلى الحكمة عندما يستفيد ما لديه من جوانب الشعور.[1]

وهذا يكمن في هذه الأبيات:

فضي بتقواك فاها كلما ضحكت كما يفض أذى الرقشاء بالترم

لا تحفي بجناها أو جنايتها الموت بالزهر مثل الموت بالفحم [2]

وفي هذه الأبيات يمكن عنصر العقلانية "فالحكمة الحقيقية ما هي إلا تلخيص تجارب ذاتية في إطار موضوعي وهي خلاصة شعور عميق وتصوير دقيق بخطرات النفس الإنسانية، إنها ذلك التفكير الشعوري الذي يعطيك النظرات الصائبة و اللمحات الإنسانية العميقة بقدر ذاتية الحكمة و ارتباطها الأصيل بأحاسيس الشاعر يكون صدقها و تأثيرها في المتلقي".[3]

لذلك نجد هذين البيتين قمة في الحكمة و الشاعر في البيت الثاني كأنه اقتبس الحكمة من قول الشاعر:

من لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب و الموت واحد

ت. الموسيقى:

الشاعر الموسيقي آلته قلبه، و أوتاره لسانه، و أنغامه حروفه، إنه يعزف هذه الآلة الخاصة لأنه لا يجيد العزف على غيرها، ولأنه يحس بقوتها السحرية الخاصة التي تفوق

[1] شوقي ضيف، شوقي شاعر العصر الحديث، المرجع السابق، ص 52.

[2] أحمد شوقي، ديوان الشوقيات، شعر المرحوم أحمد شوقي في السياسة و الاجتماع و التاريخ و الوصف و النسيب، المصدر السابق، ص 151-152.

[3] مصطفى الغماري، الصورة الشعرية في شعر شوقي، درجة ماجستير، المرجع السابق، ص 176.

في وضوحها قوة السحر الكامنة في الآلات الموسيقية الأخرى، و لقد اكتسب الشعر العربي منذ وجوده صفة غنائية خطابية تجعله يتوجه إلى الوجدان و العاطفة أكثر منه إلى العقل، و يكاد يكون من المستحيل تجريد الشعر الخليلي من عنصره الغنائي، لأن الغنائية ملازمة لطبيعة التركيب الشعري الذي يفرضه كل من الوزن و القافية معا، و مهما حاول الشاعر أن يتخلص من رمال هذه الغنائية فسوف يغوص فيها ما دام خاضعا لنفوذ الوزن و القافية.

و قد وفر الأدباء لأشعارهم غنائية عذبة إذ اهتموا بالموسيقى الداخلية التي تصدر من رقة الصياغة و انسجام اللفظ مع اللفظ، كما اهتموا بالموسيقى الخارجية التي تأتي من الأوزان العروضية حين تنسجم مع المضمون، و يناسب فيها النغم بطلاقة ورقة.[1]

و الحديث عن موسيقى شوقي يحمل الدكتور شوقي ضيف وصف هذه القدرة المتميزة عند شوقي بقوله: "... ولا أبالغ إذا قلت أنني لا أستمع إلى قصيدة طويلة لشوقي حتى أخال كأنني استمع إلى سنفونية، فموسيقاه تتضخم في أذني و أشعر كأنها تتضاعف و كأن مجاميع من مهرة العازفين يشتركون في إخراجها، وفي إيقاع نغماتها ولا أرتاب في أن ذلك يرجع إلى ضبطه البارع لآلات ألفاظه، و ذبذباتها الصوتية، وليست المسألة مسألة حذق أو مهارة فحسب، بل هي أبعد من ذلك غورا، هي نبوغ و إلهام، و إحساس عبقري بالبناء الصوتي للشعر، و هذه الروعة في الموسيقى تقترن بحلاوة و عذبة لا تعرف في عصرنا لغير شوقي، و ربما كانت تلك آياته الكبرى في صناعته، فأنت مهما اختلفت معه في تقديره شعره، لا تسمعه حتى ترهف له أذنك، و حتى تشعر كأنما يحدث فيها ثقوبا، هي ثقوب الصوت الصافي الذي تهدر به المياه بين الصخور، و الصوت

[1] نسيب نشاوي، المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر، المرجع السابق، ص 164.

يعلو تارة فيشبه زئير البحار حتى تهيج، و ينخفض تارة فيشبه قطرات الفضة التي تسقط من مجاديف الزوارق، وهي تجري سابحة على صفحة النيل...".[1]

"وقد امتلك شوقي خير أذدن باطنة واعية في شعرنا الحديث فأنت لا تكاد تقرأ فيه حتى تؤمن بأن شعره أقرب إلى الموسيقى منه إلى أي فن آخر و الشاعر إذن لا يمتلك هذه المقدرة فأولى له أن يهجر الشعر و أن يبتعد عن مواكبة الساحرة، و هذا نفسه ما حير معاصريه من شعراء الشرق العربي، و جعله يحنون رؤوسهم أمام فنه ويهتفون له من أعماق قلوبهم و إجلالا وإكبارا، بل لقد بايعوه ببيعتهم الكبرى، و ما ذلك إلا لأنه جلب ألبابهم بموسيقاه التي نفذت تأثيراتها إلى صميم أفئدتهم".[2]

"وبهذا تكون الموسيقى في شعر شوقي أروع خصاله الفنية، فلا تستمع إلى شيء من شعره حتى تعرفه، و إن لم يذكر اسمه لك، ما دامت أذنك تعودت سماع شعره و ثبتت في نفسك نغماته التي تتوالى بجانب نعمة حلوة ولا تغالي إن قلنا أنه يؤلف أروع ألحان عرفت في عصرنا الحديث، إذ نراه يعتصر من الألفاظ و الأساليب خير ما فيها من ألحان تسعفه في ذلك قطرة موسيقية رائعة تقيس قياسا دقيقا ذبذبات الحروف و الحركات، و تآلف النغم في الألفاظ و الكلمات".[3]

و المتأمل "لنهج البردة" وخاصة لبعض الأبيات التي نحن بصدد دراستها يجدها تحمل إيقاعا موسيقيا خاصا و نغما حلوا يطرق الآذان و المسامع ولا يتركها حتى يترسخ في الذهن و يخلد في الفكر و لعل هذه الموسيقية الرائعة في شعر شوقي التي تجعل شعره خفيفا و سهلا للحفظ و الاستيعاب.

[1] منير سلطان، البديع في شعر شوقي، المرجع السابق، ص 35.

[2] شوقي ضيف، شوقي شاعر العصر الحديث، المرجع السابق، ص 45.

[3] شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر، المرجع السابق، ص 114-115.

"ولم يصل شوقي إلى هذه الدرجة حتى تمكن من استخدام الألفاظ المناسبة لإحداث الجرسية هذه أو الموسيقية الجذابة التي تأخذ بالألباب قبل الأذان و ترتفع بالروح الإنسانية إلى دنيا اللذة و الطرب".[1]

و النموذج الذي بين أيدينا غني بهذه الموسيقى الخلابة و المثال على ذلك قوله:

خلائف الله جلوا عن موازنة فلا تقيس أملاك الورى بهم

من في البرية كالفاروق معدلة؟ وكابن عبد العزيز الخاشع الحشم؟

و كالإمام إذا ما فض مزدحما بمدمع في مآقي القوم مزدحم [2]

1. الموسيقى الداخلية:

وما يعجبنا في هذه الأبيات أن الشاعر جعل الشطر الأول من البيت الأول ينتهي بنفس الحرف الذي انتهى به الشطر الثاني من البيت الثاني في كلمتي "موازنة– معدلة" بالإضافة إلى اختتام الأبيات بقافية واحدة فأحدث بذلك نغما موسيقيا رائعا، دل على قدرته الفائقة على استخدام الألفاظ في مكانها المناسب وبلورتها حسب ما تقتضيه حاجيته الشعرية "و من هنا فإن تقنية شوقي في السجع تكشف لنا عن كيفية تأثره بقوافي غير قوافي القصائد اليت كان يحتذيها، و عن كيفية إيجاد الموسيقى الداخلية في البيت فمن أهم خصائص شعر شوقي الموسيقية أو الجرسية الرنانة حتى من أجلها قرنوه بصناجة العرب، و السجع هو سبيل هذه الجرسية الرنانة الأعم و الأشهر.

إن القارئ لسجع شوقي النثري يوجب كيف كان يستسيغ هذه الصنعة التي تتضح تكلفا و افتعالا، و لكنه ينسى أن يعكس هذا على سجع شوقي الشعري، أو على موسيقى

[1] عمر الدسوقي، دراسات أدبية: دار نهضة مصر للطبع و النشٍ، الطبعة الثانية، د ت، ص 158.

[2] أحمد شوقي، ديوان الشوقيات: شعر المرحوم أحمد شوقي في السياسة و التاريخ و الاجتماع و الوصف و النسيب، المصدر السابق، ص 159.

شعر شوقي بعامة، إن الحس الموسيقي واحد و لكنه في الشعر يسمو أحيانا و يطرب فعلا".[1]

وهذا السجع واقع في كثير من أبياته في نهج البردة فمثلا "مسيطر، قيصر" في قوله:

مسيطر الفرس يبغي في رعيته وقيصر الروم من كبر أصم عم

2. الموسيقى الخارجية:

وبعد هذا الحديث الميسر لنا عن الموسيقى الداخلية في شعر شوقي ننتقل إلى الحديث عن الموسيقى الخارجية التي تشتمل أو تتكون من الوزن و القافية.

"لم يثر شوقي على الوزن و القافية كما ثار دعاة التحرر اليوم".[2]

باسم التجديد و الحرية في التعبير فجاءوا بشعر لا يمت إلى الشعر بصلة، وراحوا باسمه يضربون كل ما ورثوه عن أسلافهم عرض الحائط، و أحدثوا بذلك ثورة عارمة أول ما نادت به، التحرر من الوزن و القافية، باعتبارهما يشلان حركة الفكر الشعري، ويقفان سدا منيعا أمام الإبداع و ليس هذا في نظرنا من التجديد في شيء إذ ليس من الممكن أن نقطع صلتنا بماضينا و ننسلخ منه انسلاخا تاما.

و لا بأس بالتجديد إذا ارتبط بالماضي و أخذ من جيده وصبغ بما يتفق وروح العصر وتخير منه صاحبه ما يزود به أدبه و يقدمه لقومه كما فعل شوقي.

و الموسيقى الخارجية كما سبق و أن أشرنا تتألف من القافية و الوزن، وفي الوزن نتحدث عن البحر الذي اختاره الشاعر لقصيدته "نهج البردة" التي عارض فيها البوصيري

[1] سهير القلماوي، متى ندرس فن شوقي، سجل الثقافة الرفيعة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف و النشر، العدد 24، د ت، ص 5-6.
[2] حامد حقني داود، تاريخ الأدب الحديث، تطوره، معالمه الكبرى، مدارسه، ديوان المطبوعات الجامعية، ص 46.

و استخدم نفس البحر الذي بنى عليه البوصيري قصيدته فقد اختار صاحب "نهج البردة" من بحور الشعر العربي "البسيط" الذي تفعيلاته:

مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن مستفعلن فاعلن مستعفلن فعلن

و هو بحر مزدوج التفعيلة حضي باهتمام بالغ عند الشعراء "فشكري عياد" يشير في كتابه: "موسيقى الشعر العربي" إلى أربعة أوزان قيل فيها أكثر من أربعة أخماس ما احصي من الشعر و هي الطويل، و الكامل، و الوافر و البسيط و هذا الأخير من أكثر الأوزان شيوعا.

ففي هذا الوزن يقول حازم القرطاجي "من تتبع كلام الشعراء في جميع الأعاريض وجد الكلام الواقع فيها تختلف أنماطه بحسب مجاريها من الأوزان ووجد الافتنان في بضعها أعم من بعض، فأعلاها درجة في ذلك الطويل و البسيط ثم يقول: "وتجد للبسيط سياطة وطلاوة" و هو الذوق نفسه عند الناقد المعاصر –عبداللطيف الطيب– الذي يقول "إن الطويل و البسيط أطور بحور الشعر العربي و أعظمها أبهة و جلالة".

و الواضح أن البسيط أليق بالمدح وبخصائصه الفنية و المقطعية و لذلك اختاره صاحب "نهج البردة" وزنا لقصيدته و البسيط يقرب من الطويل و لكنه لا يتسع مثله لاستيعاب المعاني، غير أنه من جهة أخرى يفوقه رقة و جزالة".[1]

ونحاول الآن أن نستخرج تفعيلات هذا البحث أو الوزن من خلال تقطيعنا لهذا البيت من قصيدة "نهج البردة".

جرحان في كبد الإسلام ما التأمما جرح الشهيد وجرح بالكتاب دمي

0/// 0//0/0/ 0/// 0//0/0/ 0/// 0//0/0/ 0/// 0//0/0/

[1] رابح بوحوش، البنية اللغوية لبردة البوصيري، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ص 24–25.

و قد حذف الثاني الساكن في تفعيله فاعلن، و هو زحاف مفرد ويدعى الخبن.

و قد اختار الشاعر هذا الوزن لقصيدته لأنه وزن مألوف و من شروط ذيوع الشعر وشهرته أن تستمتع آذان الناس لموسيقاه قبل استمتاعهم لمعانيه ومراميه فنغمته الموسيقية تلذ السامع أيا كان بيئته الاجتماعية، فإذا حاول الشاعر نظم الشعر في صورة جديدة غير مألوفة بين الناس، لم يذع قوله ولم يسهل ترديده لأن شرط ذيوع الشعر أن تآلف الآذان نغمته وموسيقاه.

و من شروط ذيوع الشعر أن ينسجم مع بيئته اللغوية في ألفاظه و أخيلته و أوزانه، وربما فرضت البيئة اللغوية على شعرائها التزام أوزان خاصة شاعت فيها و ألفاتها الآذان، أكثر مما تفرض عليه التزام أخيلة وألفاظ بعينها فالجمهور من حيث الوزن يتوقف طريقا مرسوما قد ألفه و تعود سماعه، فإذا أخل به الشاعر وتصرف فيه و اختراع وزنا جديدا لم يجد الناس يقبلون بحماس على هذا الجديد.[1]

ولذلك كان أحمد شوقي ذكيا في تخير الوزن الصحيح الذي ناسب موضوع قصيدته فجاء بالتالي في مكانه المناسب، ووصلت قصيدته النجاح و الفلاح.

3. القافية:

هي من العناصر الأساسية المساهمة في تكوين الموسيقى في الأبيات، وليس من السهل إحداث هذه الموسيقى أو الإيقاع الذي تخلقه القافية برويها إلا إذا بلغ الشعر القدرة الفائقة على استخدام الألفاظ و اختيارها ووضعها في مكانها المناسب حتى تحدث نغما موسيقيا جذابا يأخذ بالألباب، ولا شك أن شوقي وفق في هذا المجال، و كانت قصيدته "نهج البردة" برويها الميمي، فقد انتهت قافية الكلمات الأخيرة في الأبيات بحرف الميم و أحدثت بذلك سنفونية خلابة ذات إيقاعات موسيقية ينشرح لها الصدر ويرتاح لها العقل.

[1] إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1981، ص 206.

و القافية كما قال الخليل: "القافية من آخر حرف في البيت إلى أول ساكن يليه من قبله مع حركة الحرف الذي قبل الساكن" و قد علق ابن رشيق على التعريف فقال: "و القافة على هذا المذهب وهو الصحيح تكون مرة بعض كلمة، ومرة كلمة، و مرة كلمتين، فما القافية إذا إلا عدة أصوات تكررت في أواخر الأشطر أو الأبيات".[1]

و على قدر الأصوات المكررة تتم موسيقى الشعر، و تكمن وقد عد القدماء كثرة الأصوات المكررة براعة في القول لولا ما دخل هذه الكثرة في العصور المتأخرة من تكلف أخرجها من حس القول، يجب إذا أن لا نجعل كثرة الأصوات المكررة هدفنا الوحيد في نظم الشعر، مضحين من أجله بالأخيلة و المعاني كما فعل هؤلاء المتأخرون".[2]

وفي الأخير نخلص إلى أن قصيدة "نهج البردة" لأحد شوقي كانت و لا تزال آية في البراعة و الصياغة مما جعلها تنفذ إلى القلوب بسهولة، و لا تنمحي من الذاكرة إلى الأبد، و لهذا صح لشوقي أن يتربع على إمارة الشعر العربي الحديث من غير منازع.

[1] رابح بجوش، البنية اللغوية لبردة البوصيري، المرجع السابق، ص 32-33.

[2] إبراهيم أنس، موسيقى الشعر، المرجع السابق، ص 274.

الخاتمة

الخاتمة:

رأينا كيف نشأت المدائح النبوية و كيف تطورت، رأينا كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يمدح كما يمدح الرؤساء في شعر الأعشى و كعب بن زهير، وكيف مدح بشيء من روح العطف و الحنان في شعر حسان، وكيف درج الشعراء بعد ذلك مدحه و مدح رسالته السامية.

و إذا ألقينا الضوء على القصيدة و حاولنا أن نسبح في حيثياتها لتوضح لنا ذلك التسلسل المنطقي في إبراز أفكارها فكانت بدايتها نسيبا مما يدل على التأثر التام للشاعر بمن سبقوه فالتزم السنن التي وضعها البلاغيون في شروط استعمال النسيب في المدح النبوي.

لنلاحظ ذلك التسلسل المنطقي للأفكار فتخدم الأولى الفكرة الثانية، فجاءت القصيدة مترابطة تتوالى أحداثها حسب متطلبات الغرض المنشود، فقد وضع أحمد شوقي أقساما عدة جاءت بعد النسيب فمن النفس الإنسانية إلى الرسول الممدوح إلى المولد النبوي مستمدا من التاريخ الإسلامي، ثم ذكر المعجزات الكبرى للرسول، و يلي ذلك ذكر معجزة القرآن الريم الكبرى و الي لمسنا فيها صدق العاطفة فتوضح لنا ذلك الموقف الذي يتسم بالذاتية عن حمى القرآن الكريم فلمسنا من خلال حجة المنطق و اختلاج العاطفة ذاك الصراع بين العقل و العاطفة و يأتي بعد ذلك الكلام عن الإسراء و المعراج لتضافر الأثر الديني في نهج البردة بعامليه سواء من القرآن أو من قصص الإسراء و المعراج.

وكل هذه الأقسام لاحظنا فيها شدة الصراع النفسي عند الشاعر يتنازع فيه الماضي و الحاضر و المستقبل و هذه الثلاثية الزمنية هي التي جعلت من الشاعر يكشف عن مكبوتاته فهو لا يريد زهرة الدنيا مثل زهير و إنما يريد الآخرة فهي خير له و أبقى.

فهذه النبضات إذا هي التي أردعته إلى طلب المناجاة وعرض الحاجات فيخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم لنقرأ قصة النفس البشرية في الصراع، هذا الصراع هو قصة نهج البردة بكاملها.

و لقد وظف الشاعر أحمد شوقي هذه العناصر في قصيدة تميزت بأسلوب محكم و تمثل لنا ذلك في هيكلها الذي أخذ الوزن و كان من البحر البسيط و أخذ الروي فكان حرف الميم المجرورة، و لعل أول ما يسترعي انتباهنا في دراسة القصيدة بعده عن الألفاظ الغريبة و المعروف لدينا أن العرب اهتموا بقدسية و جمال الكلمة و شرف التعبير وبلاغة التركيب و اشترطوا في اللفظ أن يكون شريفا عذبا و فخما سهلا، و كرهوا أن يكون وحشيا بدويا و مبتذلا سوقيا، و كانوا يرون أن أجود الشعر عندهم السهل الممتنع.

فلو قومنا ألفاظ الشاعر بالميزان النقدي العربي لوجدنا أن أحمد شوقي على الرغم من تكلف الصور البديعية كان يجمع في أسلوبه الشروط التي يشترطها العرب في جمال اللفظ و الأسلوب.

أما تراكيبه فقد رأيناه يعتمد فيها على الأساليب العربية الأصلية، ويقتبس كثيرا من تراكيبه و معانيه كما نراه يقتبس بعض الألفاظ الواردة في الكتب الدينية من القرآن و الحديث و قصص السيرة و الإسراء و المعراج.

ولنتجاوز الألفاظ و التراكيب لنقف عند وزن القصيدة وقافيتها فقد بدى لنا أن الشاعر قد اختار وزن البسيط التام المخبون، و المعروف أن هذا البحث أحد أبحر الثلاثة التي كثر دورانها على ألسنة الشعراء في مختلف العصور وهي الطويل و البسيط و الكامل، و قد ساعده الوزن و الروي على إطالة نفسه في القصيدة المذكورة.

هذا ما يتعلق بهيكل القصيدة أما عن الجرس الموسيقي الشعري في النص فقد جاء عن طريق ائتلاف الألفاظ و التراكيب و طبيعة الوزن وإشباع الروي المكسور في القافية،

ذلك كله ساعد على هذه التموجات الموسيقية التي تشتد حينا و تلين حينا آخر بين أسلوب خبري هادئ و أسلوب طلبي منفعل.

كما لاحظنا أن الصور البيانية ظاهرة و لكنها كانت أقرب إلى الطبع و العفوية من الصور البديعية و هي مطبوعة بطابع تقليدي معروف، يضاف إلى ذلك وجود الاستعارات المختلفة.

كما توضح لنا من خلال الدراسة كثرة الطباق و الجناس و غيرها من الفنون البلاغية أما الجناس فكان أهم الوجوه البديعية التي أكثر الشاعر من استخدامها و لذلك رأينا الجناس على اختلافه موجودا في قصيدته.

و نحن نختم هذه الدراسة كان لا بد لنا من الإشارة إلى أن المحدثين وقفوا عند البردة بصفة عامة و أعجبوا بخيالها الشعري الوثاب كما هو الحال عند شاعرنا أحمد شوقي، كما عدوها ضربا من الملاحم الشعرية العربية فهذا فن من الشعر يكاد أدب الفقهاء يمتاز به، فيدفع الوصمة عن الأدب العربي التي يلصقها به كثير من النقاد حين يتحدثون عن خلوه من الملحمة و من الشعر القصصي في الجملة، ويبدو لنا أن أهمية البردة كامنة في هذه النظرة التي وقف عندها بعض الباحثين، كما أن خلود قصيدة نهج البردة كان سببه الإخلاص فهو وحده يمكن الشاعر من ناصية المجد و يرفعه إلى منزلة الخلود الأدبي لتبقى نهج البردة ملحمة أدبية كبرى في المدائح النبوية في تاريخ الأدب العربي.

و في الأخير نرجو أن نكون قد وفينا الموضوع حقه و لو برفع الإبهام عنه قليلا والكشف عن بعض أسراره لنفيد من أراد خوضع دنيا المدائح النبوية في الشعر العربي.

و نسأل الله التوفيق وأن يجعل هذا البحث في ميزان الحسنات.

قائمة المصادر والمراجع

1. المصادر:

- الإمام أبي سعيد الحسن بن الحسين العسكري، شعراؤنا، ديوان كعب بن زهير، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، سنة 2004.
- الإمام ابن عيسى بن محمد بن سورة الترمزي، مختصر الشمائل المحمدية، المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن، سنة 1971.
- بدر شاكر السياب، ديوان بدر شاكر السياب، دار العودة، بيروت، المجلد الثاني، سنة 1974.
- رحاب العكاوي، حسن بن ثابت الأنصاري، شاعر النبوة و الإسلام، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة 1996.
- رنهارت دوزي، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، دار العربية للطباعة، سنة 1971.
- محمود سالم محمد، ابن نباتة شاعر العصر المملوكي، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، سنة 1999.
- محمود سامي الباردوي باشا، ديوان البارودي حققه وصححه وضبطه وشرحه محمد شفيق معرف، دار المعارف بمصر، الجزء الثالث، سنة 1972.
- مهدي محمد ناصر الدين، ديوان بن الفارض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة 1990.
- ميمون قيس، ديوان الأعشى الكبير، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، سنة 1904.
- عبيد البريكي، أبو العلاء من التمرد إلى العدمية (ديوان)، دار المعارف للطباعة و النشر، سوسة، تونس، الطبعة الأولى، سنة 2001.
- شرف الدين أبي عبد الله محمد بن سعيد، ديوان البوصيري، شرحه وقدم له الأستاذ أحمد حسن بسبع، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، سنة 2001.

- الشوقيات: شعر المرحوم أحمد شوقي في السياسة و التاريخ و الاجتماع و الوصف و النسيب، دار الكتب العلمية، المجلد الأول، بيروت، لبنان.

2. المراجع:

- إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
- أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب للمدارس العليا، دار النهضة مصر للطبع و النشر، الطبعة 25، د ت.
- أحمد جدع، دراسات في الشعر الإسلامي المعاصر، دار الضياء، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، سنة 1987.
- أحمد محمد الحوفي، الاتجاه الروحي في شعر شوقي، مكتبة النهضة المصرية، سنة 1982.
- إيليا الحاوي، أحمد شوقي أمير الشعراء، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، الجزء الرابع، سنة 1980.
- بوجمعة بوبعيو، مقارنة بين مدرسة المهجر الشمالي وجماعة أبولو، رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير في جامعة دمشق، سنة 1981–1982، بإشراف عدنان يوسف سكيك.
- حنفي داود، تاريخ الأدب العربي الحديث، تطوره ومعالمه الكبرى ومدارسه، ديوان المطبوعات الجامعية.
- حسن حسين، ثلاثية البردة – بردة الرسول صلى الله عليه وسلم، دار الكتب القطرية، د ط، سنة 1987.
- رابح بوحوش، البنية اللغوية لبردة البوصيري، ديوان المطبوعات الجزائرية.
- زكي مبارك، المدائح النبوية في الأدب العربي، منشورات المكتبة العصرية، مطبوعات الشعب، صيدا بيروت.

- محمد بن سعيد بن حسين، المعارضات في الشعر، النادي الأدبي مطابع الفرزدق، الرياض، سنة 1971.
- مصطفى الغماري، الصور الشعرية في شعر شوقي، رسالة أعدت للحصول على درجة ماجستير، سنة 1983–1984، تحت إشراف الأستاذ حامد حنفي داود.
- منير سلطان: البديع في شعر شوقي، الناشر، منشأة المعارف بالاسكندرية، سنة 1986.
- نسيب النشاوي، المدارس الأدبية في الشعر المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، سنة 1984.
- عبدالمجيد الحر، أحمد شوقي أمير الشعراء ونغم اللحن و الغناء، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، سنة 1992.
- عباس محمود العقاد، شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، سنة 1965.
- علي النجدي ناصف، الدين و الأخلاق في شعر شوقي، الناشر، دار المعارف بالاسكندرية، سنة 1986.
- عمر الدسوقي، دراسات أدبية، دار النهضة مصر للطباعة و النشر العدد الرابع و العشرون.
- عمر الفروخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، الجزء الأول، سنة 1971.
- فتحي عثمان، شرح البردة للبوصيري ونهج البردة لشوقي، دار المعرفة مطبعة زهران، القاهرة، سنة 1973.
- سامي الدهان، فنون الأدب العربي للفن الغنائي، المديح، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية.

- سهير القلماوي، متى ندرس فن شوقي، سجل الثقافة الرفيعة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف و النشر، العدد الرابع و العشرون.
- شوقي ضيف، شوقي شاعر العصر الحديث، دار المعارف بمصر، سنة 1953.
- شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر، دار المعارف بمصر، الطبعة الرابعة، سنة 1971.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات	الصفحة
المقدمة	أ– د
الفصل الأول: المدائح النبوية	
المديح في الأدب العربي	6
نشأة المدائح النبوية	9
البردة و مفهوم المعارضة الأدبية	31
1. البردة لغويا	31
2. مفهوم المعارضة الأدبية	32
الفصل الثاني: أحمد شوقي و نهج البردة	
تقديم الشاعر	38
1. حياته	38
2. وفاته	45
3. آثاره	46
الشاعر والقصيدة	47
النص الكامل لنهجل البردة	50
شرح القصيدة	63
الفصل الثالث: دراسة الأغراض و الجانب الفني للقصيدة	
الأغراض الشعرية في القصيدة	94
1. في الغزل	94
2. في الوصف والحكمة	95
3. في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم و المسلمين	96
4. مولد الرسول صلى الله عليه وسلم ووصف المسلمين من حوله	97
5. معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم	97
6. الجهاد في سبيل الله	98
7. الشريعة الإسلامية	99

8. المقارنة بين الحضارات	99
9. الخلفاء الراشدون	100
10. المناجاة و عرض الحاجات	101
الجانب الفني للقصيدة	102
1. الصورة الشعرية	102
2. العاطفة	109
الموسيقى	112
1. الموسيقى الداخلية	115
2. الموسيقى الخارجية	116
3. القافية	118
الخاتمة	121
قائمة المصادر و المراجع	125
فهرس الموضوعات	130
الملخص	132

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم إطار نظري يحدد ويعرف مختلف المفاهيم المتعلقة بالمدائح النبوية، كما تطرقنا إلى مفهوم المديح في الأدب العربي، ومفهوم المعارضة الأدبية، لننتقل في الفصل الثاني إلى أحمد شوقي ورأيه في نهج البردة، كما تم دراسة الأغراض والجانب الفني لقصيدة نهج البردة، فهذه الأخيرة من نظم أمير الشعراء أحمد شوقي والذي يعد من أشهر شعراء العصر الحديث، فقد أسهم في النهضة الثقافية والأدبية.

Abstract:

This study aims to provide a theoretical framework that defines and defines the various concepts related to prophetic praises. We also touched on the concept of praise in Arabic literature, and the concept of literary opposition. Let us move in the second chapter to Ahmed Shawqi and his opinion on Nahj al-Burda. This last one was organized by the Prince of Poets Ahmed Shawqi, who is considered one of the most famous poets of the modern era, as he contributed to the cultural and literary renaissance